التفسير الجامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزةٌ بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ، فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله؛ امتثالاً لأمره ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد ﷺ، فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله، وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون). والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد الستّار السيّد

الجُزءُ الثّاني عشر

سـورة هود من الآية (٦-١٢٣)

سورة يوسف من الآية (١-٥٢)

(الآية ٦) - ﴿*وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾:

﴿*وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾: الدّابّة: كلّ ما يدبّ على الأرض، وتُستَخدم في العرف للدّلالة على أيّ كائنٍ يدبّ على الأرض غير الإنسان، وفي آيةٍ أخرى يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨].

﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾: كلمة: ﴿عَلَى﴾ تُفيد أنّ الرّزق حقٌّ للدّابّة، لكنّها لم تفرضه على الله ﷻ، وإنّما ﷻ ألزم نفسه بهذا الحقّ لها.

﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾: المستقرّ: هو مكان الاستقرار، والمستودع هو مكان الوديعة، والله ﷻ هو الّذي يرزق الدّابّة، فهو يعلم مستقرّها أين تعيش ليوصل إليها هذا الرّزق، وهو بذلك يُطمئِن كلّ إنسانٍ أنّ رزقه يعرف عنوانه لكنّ الإنسان لا يعرف عنوان الرّزق، فالرّزق يأتي إليه من حيث لا يحتسب، يقول ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطّلاق: من الآية ٢-٣]، لكنّ السّعي إلى الرّزق شيءٌ آخر، فقد يسعى الإنسان إلى رزقٍ ليس له بل هو رزقٌ لغيره.

﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾: أي أنّ كلّ أمرٍ مكتوبٌ، وهناك فرقٌ بين أن تفعل ما تريد ولكن لا يحكم إرادتك مكتوبٌ فلا يأتي على بالك أن تفعله، وبين أن تفعل أمراً قد وُضِعت خطواته في خطّةٍ واضحةٍ مكتوبةٍ ثمّ تأتي أفعالك وفقاً لما كتبت، ومن عظمة الله ﷻ أنّه كتب كلّ شيءٍ، ثمّ يأتي كلّ ما في الحياة وفق ما كتبه باختيار الإنسان، ويُحاسب الإنسان على اختياره،

وهذا من علم الغيب الّذي لا يمكن للعقل البشريّ أن يعلم ماهيته وكينونته، وكثيرٌ من النّاس يقولون: كيف كتب الله ﷻ عليّ؟ لكن ما أدراك ما كتب الله ﷻ عليك؟ فالله ﷻ بيّن لك الطّريق وأعطاك الاختيار، وقال لك: سأحاسبك على الاختيار، فهو علم وكتب ما ستفعله قبل أن تفعل بعلمه الأزليّ، فلا تقل: بأنّه كتب عليك.

(الآية ٧) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: تعرّض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسّماء أكثر من مرّةٍ، فقد شاء ﷻ أن يخلق السّماوات والأرض في ستّة أيّامٍ من أيّام الدّنيا، وهو قادرٌ ﷻ أن يخلقها بأقلّ من طرفة عينٍ، وهناك فارقٌ بين إيجاد الشّيء وطرح مكوّنات إيجاد الشّيء، وهذا يحدث بالنّسبة لأفعال البشر، فهل أفعال الله ﷻ تحتاج إلى علاجٍ؟ إنّ أفعال الله ﷻ لا علاج فيها؛ لأنّها كلّها تأتي بكلمة: ﴿كُن﴾.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: العرش في اللّغة العربيّة هو سرير المُلك، والله ﷻ سمّى سرير ملكة سبأ بالعرش فقال ﷻ: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النّمل]، قال المفسّرون: عرش الباري سبحانه لا يُحدّ؛ لأنّ الله ﷻ لا يُحدّ، وهو مُضافٌ إلى الله ﷻ للكناية عن

مُلك الله ﷻ، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فلا يقولنّ قائلٌ: كيف كان عرشه؟ ولا يتصوّر عرشاً كعرش المُلك، وماءً كماء البحار، وإنّما هذا من علم الغيب الّذي اختصّ به الله ﷻ، فكلّ ما يتعلّق بالله ﷻ من صفاته وأفعاله لا نستطيع إدراكها فهو ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فهنا أخبرنا ﷻ بذلك، ولكنّ الكيف مجهولٌ بالنّسبة إلينا.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: الابتلاء هو اختبارٌ، فوجود الإنسان في هذه الحياة هو اختبارٌ.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: فهي أعمالٌ يُحصيها الله ﷻ لنا، قال ﷻ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّجم].

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: كان النّبيّ ﷺ يبيّن لهم أنّهم مبعوثون بعد موتهم ليحاسبوا على ما فعلوه في الدّنيا، فما كان جوابهم؟

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: سحرٌ واضحٌ، محيطٌ بكلّ من يريد أن يسحره، ولكن بقاؤهم كافرين دليلٌ على أنّه ليس بسحرٍ، وإلّا لِمَ لَمْ يسحرهم أيضاً؟ فهذه قضيّةٌ مردودةٌ.

(الآية ٨) - ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾:

﴿وَلَئِنْ﴾: اللّام في قوله ﷻ: (لئن) تدلّ على وجود قسمٍ مؤكّدٍ، وإن

كان محذوفاً، تقديره: (والله لئن)، وإذا اجتمع الشّرط والقَسم فبلاغة الأسلوب تكتفي بجوابٍ واحدٍ يكون للأسبق منهما، وهنا أغنى جواب القسم عن جواب الشّرط.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾: كانت مهمّة الرّسل السّابقين لرسول الله ﷺ أن يُبلّغوا الدّعوة، ثمّ تتولّى السّماء تأديب الكافرين بالرّسالات، لكنّ الحقّ ﷻ شاء أن يُفضّل أمّة رسول الله ﷺ على الأمم كلّها، وبألّا يكون هناك عذاب استئصالٍ، وأن يكون هناك مجالٌ للاستغفار، وأراد الله ﷻ الإمهال مع الإملاء، والإملاء للظّالم تزداد فيه المظالم والنّكول عن الحقّ، وهنا يبيّن الحقّ ﷻ لرسوله الكريم أنّه يُبطن لهم العذاب بالإمهال، لكنّهم أخذوا ذلك على موضع السّخرية والاستهزاء، وتساءلوا: أين هو العذاب؟ وقد ذكر القرآن الكريم قولهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص]، والقِطّ: هو جزاء العمل، مأخوذٌ من القطع.

﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: الأمّة: هي طائفةٌ أو جماعةٌ من جنسٍ واحدٍ يجمعها، مثل: أمّة الإنس، أمّة الجنّ، أمّة النّمل.. وغير ذلك من خلق الله ﷻ، فالأمّة طائفةٌ يجمعها نظامٌ وقانونٌ واحدٌ، وأفرادها متساوون في كلّ شيءٍ، وكذلك الأمّة هي الطّائفة من الزّمن؛ أي الفترة من الزّمن.

﴿مَّعْدُودَةٍ﴾: كلمة (معدودة) تفيد القلّة، مثل قول الحقّ تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ [يوسف]؛ أي يمكن عدّها.

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾: ما الّذي يؤخّره؟ وهذا استهزاءٌ منهم.

﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾: يأتي الرّدّ عليهم بأداة التّنبيه ﴿أَلَا﴾؛ أي تنبّهوا إلى هذا الرّدّ، فالعباد دائماً يعجلون، لكنّ الله ﷻ لا يعجل، فكلّ أمرٍ له وقتٌ وميلادٌ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون، وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء، أوّلها: ﴿أَلَا﴾ أداة تنبيهٍ، ثمّ قول الحقّ ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ هذا خبرٌ بأنّ العذاب آتٍ لا محالة، وأيضاً هذا العذاب ليس مصروفاً عنهم؛ أي أنّه عذابٌ مستمرٌّ.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: حلّ بهم ونزل عليهم ووقع لهم العذاب الّذي استهزؤوا به من قبل، وكلمة (حاق) فعلٌ ماضٍ، فكيف يستعجلون أمراً، ويأتي التّعبير عنه بفعلٍ ماضٍ (حاق) وليس (يحيق) أو (سيحيق)؟ لأنّ القائل هو الله ﷻ، والكلام مأخوذٌ بقانون المتكلّم، وكلّ فعلٍ يُنسب إلى قوّة فاعله، فإذا تحدّث ﷻ وجاء بفعلٍ ماضٍ فكأنّه يقول: إنّ الأمر واقعٌ لا محالة، والله ﷻ خارج الزّمان فقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي أنّ الأمر قد تحقّق فعلاً وانتهى؛ لأنّه لن يحول بينه وبين وقوعه أيّ عائقٍ.

(الآية ٩) - ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾:

﴿وَلَئِنۡ﴾: اللّام قد سبقت وتدلّ على القَسَم، وهنا اجتمع قَسَمٌ وشَرْطٌ، والقَسَم متقدّمٌ فالجواب يكون له.

﴿أَذَقۡنَا﴾: محلّ الإذاقة هو الفم، والإذاقة هي أن يتناول الإنسان الشّيء لإدراك طعمه أهو حلوٌ أم مرٌّ أم حامضٌ أم قلويٌّ، فالذّوق هنا هو

الإدراك، ويتعلّق بالنّعمة، فحين يشاء الله ﷻ أن ينزع النّعمة من الإنسان، فإنّه يُصاب بالقلق والحزن والهَلَع واليأس.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: المقصود بالإنسان أبناء آدم عليه السلام كلّهم من دون استثناءٍ، ولكن عندما يذكر ﷻ الإنسان فإنّه يستثني المؤمن: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾: النّزع يُفيد أنّ الإنسان حريصٌ على ما وهبه الله تعالى من خيرٍ وصحّةٍ وعافيةٍ ويُسرٍ، وحين تؤخذ منه النّعمة فإنّه يُقاوم، والنّزع يعني استمساك المنزوع منه بالشّيء المنزوع.

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾: اليأس: هو قطع الأمل من حلول شيءٍ؛ لأنّ الإنسان لا يملك الفعل، ولو كان يقدر عليه لما يئس، أمّا المؤمن فلا ييأس أبداً؛ لأنّ الله ﷻ هو القائل: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: من الآية ٨٧]، فاليأس أن تقطع الأمل من أمرٍ مُرادٍ لك، ولا تمتلك الوسائل لتُحَقِّقه، ومَن ييأس، هو مَن ليس له إلهٌ يركُن إليه، والله ﷻ هو الرّكن الرّشيد الشّديد، والمؤمن إذا فقد شيئاً يقول: إنّ الله تبارك وتعالى سيعوّضني خيراً منه، أمّا الّذي لا إيمان له فيقول: هذه صدفةٌ وقد لا تتكرّر مرّةً أخرى.

(الآية ١٠) - ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾: هنا نجد الضرّاء هي الموجودة، والنّعماء هي الّتي تطرأ، عكس الحالة الأولى، وهناك فارقٌ بين

(نعماء) و(نعمة)، وبين (ضرّاء) و(ضرّ)، فالضّرّ هو الشّيء الّذي يؤلم النّفس، والنّعمة هي الشّيء الّذي تتنعّم به النّفس، لكنّ التّنعّم والألم قد يكونان في النّفس ولا ينضح أيٌّ منهما على الإنسان، فإن نضح أثر النّعمة على الإنسان نقول عنها: نعماء، وإن نضح أثرٌ من الضّرّ عليه نقول: ضرّاء.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾: السّيّئة لا تذهب وحدها، ولو كان القائل مؤمناً لقال: رفع الله ﷻ عنّي السّيّئات، لكنّه غير مؤمنٍ لذلك يغرق في فرحٍ كاذبٍ وفخرٍ لا أساس له، ويصفه الحقّ ﷻ هنا بقوله:

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾: وكأنّ الفرح بالنّعمة أذهله عن المُنعِم، وعمّن نزع منه السّيّئة، وأمّا الفخر فهو الاعتداد بالمناقب، لذلك نقول: إنّنا نحصّن كلّ نعمةٍ بقولنا عند رؤيتها: باسم الله، ما شاء الله، لنتذكّر أنّ هذه النّعمة لم تأت بجهدنا فقط، وإنّما جاءت بمشيئة الله ﷻ، لتبقى عين الواهب حارسةً للنّعمة الّتي عندنا، أمّا حين ننسى الواهب فلن نستطيع أن نحافظ على تلك النّعمة، والمولى ﷻ لم يمنع الفرح وانشراح الصّدر والسّرور بنعمةٍ من نِعمه ﷻ؛ لأنّه يقول في آياتٍ أخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، لكنّه ﷻ يطلب من المؤمن ألّا يكون الفرح المنبعث لأتفه الأسباب، إلّا من فرحٍ بنعمة الله ﷻ.

(الآية ١١) - ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾: استثنى المولى ﷻ من هؤلاء الّذين يفرحون هذا الفرح بالنّعماء بعد الضّرّاء من غير أن يذكروا المُنعم ﷻ أولئك الّذين صبروا

وعملوا الصّالحات، وكلمة ﴿صَبَرُواْ﴾ توافق الأمرين اللّذين سبقا، فهناك نزع الرّحمة وهناك نعماء من بعد ضرّاء، فكِلا الموقفين يحتاج إلى الصّبر، وقد جاء الاستثناء هنا ليطمئِن الّذين يصبرون على ما يصيبهم في أمر دنياهم، أو ما يصيبهم في ذواتهم بتقدير العزيز العليم، فالصّبر معناه حدّ النّفس بحيث ترضى عن أمرٍ مكروهٍ نزل بها والأمر المكروه له مصادر عدّة، منها أمرٌ لا غريم لك فيه، كالمرض، أو أمرٌ لك فيه غريمٌ، أحدهم سرق منك أو اعتدى عليك أو ضربك.. فينشغل الإنسان برغبة الانتقام، وتتأجّج به هذه الرّغبة ضدّ الغريم، لذلك الصّبر على هذه أصعب من الصّبر على الأولى، وقد عرض الحقّ ﷻ هذا الصّبر عندما قال على لسان سيّدنا لقمان: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: من الآية ١٧]، وفي موضعٍ آخر يقول جلّ وعلا: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشّورى]، هنا جاءت لام التّأكيد لتؤكّد أنّ الأمر يحتاج إلى عزمٍ قويٍّ؛ لوجود غريمٍ يُثير غضب الإنسان.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: لا يوجد إيمانٌ من غير صبرٍ ومن غير عملٍ صالحٍ؛ لأنّ علامة الإيمان هي الأعمال الصّالحة، فالإيمان كما قال الحسن البصريّ رضي الله عنه: "ما وقر في القلب وصدّقه العمل"[1]، فدليل الإيمان وظائفه وما تقتضيه هذه الوظائف، وفي مسرح الحياة على الإنسان أن يعمل الصّالحات الّتي تؤدّي بالخير إلى النّاس جميعاً، لذلك لم يرد في القرآن الكريم

(١) مصنّف ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان والرّؤيا، الحديث رقم (٣٠٣٥١).

جزاءٌ للّذين آمنوا إلّا واقترن بالعمل الصّالح، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾: ينالون المغفرة؛ لأنّهم صبروا وغفروا، لذلك يهديهم الله ﷻ للمغفرة لمن أساء لهم، ويغفر لهم ذنوبهم، ولهم أجرٌ كبيرٌ.

(الآية ١٢) - ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ۝١٢﴾:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾: استفهامٌ في معرض النّهي، كأنّه يقول ﷻ: لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المتعنّتين الّذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الّذي تُلحّ دائماً في التأكيد عليه، وهو أنّك بشرٌ، فمطلوباتهم منك ما هو فوق البشر، فهم يطلبون آياتٍ تُخالف نواميس الكون، وأنت مُبلِّغٌ، فلو ضاق صدرك منهم وأنقصت البلاغ الموكل إليهم كلّما كذّبوا آيةً فاعلم أنّ الله ﷻ سيزيد عقابهم بِقدر ما كذّبوا، وكلمة (ضائق) اسم فاعلٍ، لكنّها تُعبّر عن مرحلةٍ من الضّيق الشّديد للنّبيّ ﷺ من شدّة الإنكار الّذي لاقاه من قومه، والنّبيّ ﷺ إنسانٌ، فأمرٌ طبيعيٌّ أن يضيق صدره بما يقولون، ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر]، فهذه الآية هي تسليةٌ لقلب النّبيّ ﷺ ولأمّة

النّبيّ ﷺ من بعده في الدّعوة إلى الله ﷻ.

﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾: الكنز لغةً: هو الشّيء المجتمع، وإذا كانت الماشية مليئةً باللّحم يُقال: إنّها مُكتنزةٌ، وكلمة الكنز أُطلقت على الشّيء الّذي هو ثمنٌ لأيّ مادّةٍ؛ وهو الذّهب، لذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ [التّوبة: من الآية ٣٤]، وهنا معنى النّقد من الذّهب والفضّة مجتمعة، هم ينظرون إلى المقاييس المادّيّة، فمسألة الكنز بالنّسبة إلى النّبيّ ﷺ لا تشغلُه، وكلمة ﴿لَوۡلَآ﴾ للتّمنّي، هم تمنّوا الكنز، وطلبوا أن يأتي مَلَكٌ من السّماء.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾: هذا الكلام موجّهٌ من الله ﷻ لرسوله الكريم ليُعطيه الحُجّة الّتي يردّ بها عليهم، فقد حدّد ﷻ المهمّة الّتي جاء بها الرّسول ﷺ، وقد قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام]، فهم لا يُحدِّدون ولا يقترحون على السّماء ما يريدون، وقد قال لهم الرّسول ﷺ: إنّه نذيرٌ وبشيرٌ، وقد طلب غيركم من الأقوام آياتٍ، وحين جاءت الآيات الّتي طلبوها لم يؤمنوا بل ظلّوا على تكذيبهم، فنكّل الحقّ ﷻ بهم، فالعناد بالكفر لا ينقلب إلى إيمانٍ بمجرّد نزول الآيات، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٩]، والرّسول ﷺ جاءهم بالقرآن الكريم فيه إنذارٌ وبشارةٌ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾: حين توكّل إنساناً في البيع والشّراء والهبة

والنّقل فله حريّة التّصرّف في كلّ ما يخصّك، وترقَب تصرّفه وسلوكه، فإن أعجبك تمسّكت بتوكيله عنك، أو تُلغي الوكالة، أمّا وكالة الله ﷻ على الخلق فهي باقيةٌ أبداً وإن أبى الكافرون منهم.

(الآية ١٣) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾: في قول الله ﷻ هنا بيانٌ للونٍ آخر من مصادمة الكافرين لمنهج الرّسول ﷺ والإيمان به، فقد قالوا: إنّ محمّداً قد افترى القرآن، والافتراء هو الكذب المتعمّد؛ أي أنّه كلامٌ يُخالف واقعاً في الكون.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾: حين اتّهموا النّبيّ ﷺ بهتاناً بأنّه افترى القرآن الكريم، جاء الرّدّ بمنتهى البساطة: أنتم معشر العرب أهل فصاحةٍ وبلاغةٍ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس نبوغكم، وما دمتم قد قلتم: إنّ محمّداً قد افترى القرآن الكريم، وإنّ آياته ليست من عند الله ﷻ فلماذا لا تفترون مثله؟ ما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنّسبة إليكم، فلماذا لا تأتون بمثله، ولو بعشر سورٍ منه؟ لقد عشتم مع محمّدٍ ﷺ منذ صغره، وتعلمون أنّه لم يزاول الشّعر أو الخطابة، ولم يشترك في أسواق البلاغة والشّعر الّتي كانت تُعقد في الجاهلية في مكّة، فهل كنتم قادرين على قبول التّحدّي بأن تأتوا بعشر سورٍ من مِثل القرآن الكريم في قوّة الفصاحة وأسرار المعاني؟

﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: وهنا جاء الحقّ ﷻ بالمرحلة الثّانية من التّحدّي وهي السّور العشر، وطلب منهم أن يدعوا البلغاء والشّركاء من دون الله ﷻ، وهنا يقطع الله ﷻ عليهم فرصة الادّعاء، حتّى لا يقولوا سوف ندعوا الله ﷻ ولذلك طالبهم أن يأتوا بمن استطاعوا.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: ولا شكّ هم كاذبون في ذلك.

(الآية ١٤) - ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾:

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾: هذا الرّدّ الحكيم من الله ﷻ بأنّهم لن يستطيعوا الإجابة.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾: الخطاب هنا موجّهٌ إلى الّذين ادّعوا أنّ رسول الله ﷺ قد افترى القرآن الكريم، أو أنّ الخطاب موجّهٌ للرّسول ﷺ؛ لأنّ الحقّ ﷻ قال في الآية السّابقة: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، فإن لم يردّوا على التّحدّي فليعلموا وليتيقّنوا أنّ هذا القرآن الكريم هو من عند الله ﷻ بشهادة الخصوم منهم، لكن لنلحظ هنا ملحظاً مهمّاً، لماذا عدّل الله ﷻ هنا الخطاب؟ ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾؛ أي من تدعونهم، ثمّ قال ﷻ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾، وقد قال الله ﷻ ذلك؛ لأنّ الرّسول ﷺ مُطالبٌ بالبلاغ، وما بلّغه الرّسول ﷺ للمؤمنين مطلوبٌ منهم أن يبلّغوه، فإن لم يستجيبوا للرّسول ﷺ أو للمؤمنين فهذا هو الجواب، فهنا المولى ﷻ عندما كان

يُخاطب النّبيّ ﷺ انتقل في الخطاب إلى واو الجماعة؛ أي لكلّ المؤمنين، وهذا التّحدّي موجودٌ إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: الله ﷻ ليس كمثله شيءٌ، ولا يستطيع أحدٌ أن يردّ أمره وقدرته، وما دام القرآن الكريم جاء بعلمه ﷻ فلا علم لبشرٍ يمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن الكريم أبداً، وجاء الحقّ ﷻ هنا بأنّه لا إله إلّا هو حتّى لا يدّعي أحدٌ أنّ هناك إلهاً آخر غير الله ﷻ.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾: هذا استفهامٌ صادرٌ عن إرادةٍ حقيقيّةٍ قادرةٍ على هذا الأمر، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؟ أي أسلموا واتركوا اللّجاج بأنّ القرآن الكريم افتراءٌ، بل هو من عند الله ﷻ الّذي لا إله إلّا هو.

(الآية ١٥) - ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾: يخاطب الله ﷻ أولئك الّذين تمسّكوا بهذه الحياة، والّتي سمّاها دنيا، قال ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران]، هذه الأشياء تدخل في متاع الحياة الدّنيا، ومعنى كلمة زينة أنّها حُسْنٌ أو تحسينٌ طارئٌ على الذّات، إضافيٌّ عنها، وهناك فرقٌ بين الحُسن الذّاتيّ والحُسن الطّارئ على الذّات، فالزّينة هي تحسين الشّيء بغيره، أمّا الشّيء الحسن فيستغني عن الزّينة.

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: أي إن كفرتم بالله فهو ﷻ لا يضنّ بأن يعطيكم مقوّمات الحياة وزينتها؛ لأنّه ربٌّ، وهو الّذي خلقكم واستدعاكم إلى الوجود، وقد ألزم نفسه ﷻ أن يعطيكم ما تريدون من مقوّمات الحياة وزينتها، وهو القادر على أن يوفّي ما وعد، فإذا أخذتم بالأسباب سيعطيكم الحقّ ﷻ العطاء حسب الأسباب كاملاً غير منقوصٍ، فمن يُتقِن عمله يأخذ ثمرته، وهذا القول الكريم يحلّ لنا إشكالاً كبيراً، حيث يقول بعض النّاس: إنّ هؤلاء المسلمين الّذين يقولون: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، ويقيمون الصّلاة، ويبنون المساجد، هم قومٌ متخلّفون ومتأخّرون عن ركب الحضارة، بينما نجد مَن في الغرب يرفُلون في نعيم الحضارة، فنقول جواباً على ذلك: إنّ الله ﷻ له عطاء ربوبيّةٍ للأسباب، فمَن أحسن الأسباب حتّى لو كان كافراً تعطيه الأسباب، لكن ليس له في الآخرة من نصيبٍ؛ لأنّ الله ﷻ قال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]، ويجب علينا أن نقول لمن يتّهم المسلمين بالتّخلّف: لقد كان المسلمون في أوائل عهدهم متقدّمين، وكانوا سادة الحياة الدّنيا حين طبّقوا دينهم ظاهراً وباطناً، شكلاً ومضموناً، وعلى ذلك فالتّخلّف ليس لازماً ولا ملازماً للإسلام، وإنّما جاء التّخلّف؛ لأنّنا تركنا روح الإسلام وتطبيق هذه الرّوح، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمنٌ نال حُسن خير الدّنيا وحُسن ثواب الآخرة، ومن لا يؤمن وأخذ بالأسباب نال خير الدّنيا ولم ينل ثواب الآخرة.

(الآية ١٦) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾: النّار مثوى هؤلاء الّذين عملوا من أجل الدّنيا من غير إيمانٍ بالله ﷻ، فقد أخذوا حسابهم في الدّنيا.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾: في الآخرة حبط عملهم، والحَبَط: هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئاً أخضر لم ينضج بعد، فيُقال: انتفخت البهيمة، لحدوث انتفاخٍ في بطنها فيظنّها الجاهل سِمنةً، لكنّه بالحقيقة انتفاخٌ مؤقّتٌ يزول بزوال سببه، وعمل الكافرين إنّما يحبط في الآخرة؛ لأنّه باطلٌ كما قال الله ﷻ: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

(الآية ١٧) - ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: البيّنة: بصيرةٌ، وهي الفطرة السّليمة الّتي تُلفت الإنسان إلى وجود الله ﷻ، وتوضّح للإنسان أنّ هذا الكون الجميل البديع لا بدّ له من واجدٍ، وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة، كما قال الأعرابيّ: "البعرةُ تَدلّ على البعير، والأثرُ يَدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، أفلا تدلُّ على العليّ الخبيرِ؟!"، فاهتدى الرّجل بالفطرة، وهي بيّنةٌ من الله ﷻ.

﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾: القرآن الكريم حجّةٌ ونورٌ، وهو يهدي البصيرة الفطريّة الموجودة في الإنسان، ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ هو من أُنزل عليه الوحي؛ أي النّبيّ ﷺ، ونحن هنا أمام ثلاثة شهود: الشّاهد الأوّل هو الحجّة والبيّنة، الشّاهد الثّاني البرهان والبصيرة الّتي يهتدي إليها العقل والرّسول الّذي يبيّن لنا المنهج، ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ﴾: وهذا الرّسول جاء من قبله كتاب موسى عليه السلام، وهو الشّاهد الثّالث، ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلّة الثّلاثة فهو مقصّرٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾: إشارةٌ إلى الّذين التفتوا إلى الأدلّة.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾: الكفر هو السّتر، وهو في ذاته دليلٌ على الإيمان، فالإنسان لا يكفر بشيءٍ غير موجودٍ، فالكافر يستر موجوداً، وبذلك هو دليلٌ على وجود الله ﷻ.

﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: أحزاب جمع حزب، والحزب هو الجماعة المُلتقية على مبدأ تتحمّس لتنفيذه، مثل الأحزاب الّتي نراها في الحياة السّياسيّة.

﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾: المقصود بهم هنا كفّار قريش، عبدة الأوثان والصّابئة واليهود وغيرهم الّذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله ﷺ، كلٌّ منهم جماعة تمثّل حزباً، ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله ﷺ فالجزاء هو النّار.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾: يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ: لا تكن في شكٍّ من ذلك؛ لأنّ رسالتك وبعثتك تقوم على أدلّة البيّنة والفطرة والهدى والنّور، والشّاهد معك كما شهد لك من قبل ما جاء في كتاب موسى عليه السلام.

﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: والحقّ كما قلنا سابقاً هو الشّيء الثّابت الّذي لا يتغيّر ولا يعتريه أيّ تبديل، وهذا الحقّ لا يمكن أن يأتي إلّا من إلهٍ لا تتغيّر أفعاله.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: هؤلاء لا يؤمنون عناداً؛ لأنّ الأدلّة منصوبة بأقوى الحُجج، فمن يمتنع عليها فهو مُعَانِد.

(الآية ١٨) - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: تبدأ هذه الآية بخبرٍ مؤكّدٍ بصيغة استفهامٍ، حتّى يأتي الإقرار من هؤلاء الّذين افتروا على الله ﷻ كذباً، والإقرار سيّد الأدلّة، وهو اعترافٌ بهذا الظّلم الفظيع.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: العرض: هو إظهار الشّيء الخفيّ، وهكذا يظهر الخزي والخجل والمهانة على هؤلاء الّذين افتروا على الله ﷻ.

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: الأشهاد: جمعٌ مفرده: شاهد، مثل: صاحب مفرد أصحاب، أو يكون المفرد شهيدٌ، مثل شريف مفرد أشراف.

الأشهاد منهم الملائكة؛ لأنّ الحقّ ﷻ يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق]، ويقول ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار]، أو شهود من الأنبياء الّذين بلّغوهم منهج الله

تبارك وتعالى؛ لأنّ الحقّ ﷻ يقول: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النّساء]، وأيضاً الشّهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمّة سيّدنا محمّد ﷺ مِصداقاً لقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٣]، فكلمة شهادة تعني تسجيل ما فعلوا، ويُسجّل عليهم بأنّهم بُلِّغوا بالمنهج فعاندوه وخرجوا عليه، فارتكبوا الجريمة الّتي تقتضي العقاب؛ لأنّ العقوبة لا تكون إلّا بجريمةٍ، ولا تجريم إلّا بنصٍّ، ولا نصّ إلّا بإعلامٍ، وما داموا قد كذَبوا على ربّهم ﷻ، وارتكبوا قمّة الظّلم وهو الشّرك به والإلحاد وإنكار الرّسول والرّسالة فلا بدّ أن يطردهم من الرّحمة.

(الآية ١٩) - ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هؤلاء الّذين كفروا بالله ﷻ وآياته ورسوله لم يكتفوا بكفرهم، بل تمادوا وأرادوا أن يصدّوا غيرهم عن الإيمان، وبذلك تعدّوا في الجريمة، فبعد أن أجرموا في ذواتهم أرادوا لغيرهم أيضاً أن يُجرم.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾: السّبب في صدّهم عن سبيل الله ﷻ أنّهم يريدون الحال معوجّاً؛ أي مائلاً، ويريدون أن ينفّروا النّاس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم المتاع والمصالح في الدّنيا؛ لأنّ مجيء الإصلاح بالإيمان أمرٌ يزعجهم ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد.

(الآية ٢٠) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: الإعجاز: هو الامتناع، أعجَزت فلاناً؛ أي برهنت على أنّه ممتنعٌ عن الأمر، وغير قادرٍ عليه، وقد تجلّى الإعجاز في عجز هؤلاء الّذين أنكروا أنّ القرآن الكريم معجزةٌ أن يأتوا بآيةٍ من مثله، والمُعجِز في الأرض هو الّذي لا تقدر عليه، ويبيّن الله ﷻ لنا في هذه الآية أنّ هؤلاء الكافرين لا يُعجزون الله ﷻ في الأرض، بدليل أنّ هناك نماذج سبقت لأممٍ كفرت، فمنهم من أخذته الرّيح ومنهم من خسف الله ﷻ به الأرض ومنهم من غرق.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾: وفي الآخرة ليس لهم وليٌّ ولا نصيرٌ من دون الله ﷻ؛ لأنّ الوليّ هو القريب منك، ولا يقترب منك إلّا من تحبّه وترجو خيره، والوليّ هو النّصير أيضاً؛ لأنّك أوّل ما تستصرخ يأتي إليك القريب منك، وهؤلاء الّذين يصدّون عن سبيل الله ﷻ لن يجدوا وليّاً ولا ناصراً في الآخرة؛ لأنّ كلّ إنسانٍ سيكون مشغولاً بنفسه.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾: ومضاعفة العذاب أمرٌ منطقيٌّ لهؤلاء الّذين أرادوا الأمر عِوجاً، وصدّوا عن سبيل الله ﷻ، وأرادوا بذلك إضلال غيرهم، فقول الحقّ ﷻ: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ لا يتناقض مع قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١٦٤]؛ لأنّ هؤلاء الّذين صدّوا عن سبيل الله ﷻ

ليس لهم وِزرٌ واحدٌ، بل لهم وِزران؛ وِزر الضّلال في ذواتهم، ووِزر الإضلال لغيرهم، فيُضاعف لهم العذاب.

﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾: أي لم يستطيعوا الاستفادة من السّمع رغم وجود آلته، فلم يستمعوا لبلاغ رسول الله ﷺ، ولم يستطيعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله ﷻ في الكون، فكأنّهم صمٌّ عميٌ.

(الآية ٢١) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: خسروا أنفسهم؛ لأنّهم ظلموها وأعطوها شهوةً عاجلةً زمنها قليلٌ، وأخذوا عذاباً آجلاً زمنه طويلٌ.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾: غاب وتاه عنهم؛ أي لم يهتدِ إليهم من كانوا يعبدونهم من دون الله ﷻ، ولو كان لهؤلاء الّذين عبدوهم قوّةٌ يوم القيامة لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب، ولكنّهم بلا حولٍ ولا قوّةٍ؛ لأنّ الحقّ تبارك وتعالى حكم على هؤلاء الكافرين فقال: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [التّوبة: من الآية ٧٤].

﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾: أي ما كانوا يدّعونه كذباً.

(الآية ٢٢) - ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: اختلف العلماء في معنى كلمة: ﴿لَا جَرَمَ﴾ المعنى العامّ؛ أي حقٌّ وثابتٌ، وحين يقول الحقّ ﷻ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النّحل: من الآية ٦٢]؛

أي حُقّ وثبُت أنّ لهم النّار نتيجة ما فعلوا من أعمالٍ، وهنا قوله ﷻ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾؛ أي لا قطع لقول الله ﷻ فيهم بأنّهم في الآخرة هم الأخسرون، ولا شيء يحول دون ذلك أبداً، ولا بدّ أن ينالوا هذا الوعيد.

﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: الأخسرون: جمع الأخسر، هي أفعل التّفضيل لخاسرٍ، وخاسر: اسم فاعلٍ مأخوذٌ من الخسارة.

(الآية ٢٣) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: الإيمان كما نعلم أمرٌ عقديّ يعلن فيه الإنسان إيمانه بإلهٍ واحدٍ موجودٍ، ويلتزم بالمنهج الّذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم، ومن آمن بالله ﷻ عليه أن يعمل صالحاً؛ لأنّ فائدة الإيمان إنّما تتحقّق بالعمل الصّالح، وكما قال النّبيّ ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستّون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق**»(١)، فهي شُعبةٌ من شُعب الإيمان، لذلك قال ﷻ: ﴿*قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: من الآية ١٤]؛ أي اتّبعتم ظاهر الإسلام؛ لأنّ الّذين آمنوا عليهم أن يعملوا.

﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أي أن يكون كلّ ذلك بخضوعٍ، لذلك يُقال: رُبّ معصيةٍ أورثت ذُلّاً وانكساراً خيرٌ من طاعةٍ أورثت عزّاً واستكباراً، فكلمة أخبتوا؛ أي خضعوا خشيةً لله ﷻ، فهم لا يؤدّون فروض الإيمان

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم (٣٥).

لمجرّد رغبتهم في ألّا يعاقبهم الله ﷻ، بل يؤدّون فروض الإيمان والعمل الصّالح خشيةً من الله ﷻ.

الخَبْتُ من الأرض: ما انخفَضَ واتَّسَعَ..، أخبت الشَّخصُ إليه- أخبت الشَّخصُ له: خضع وخشع وتواضع له، اطمأنَّ وسكن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: أي الملازمون لها، وخلودهم في الجنّة يعني أنّهم يقيمون في النّعيم أبداً، فنعيم الجنّة دائمٌ على عكس نعيم الدّنيا الّذي قد يفوت الإنسان بالموت، أو يُسلب عنه هذا النّعيم؛ لأنّ الإنسان في الدّنيا عرضةٌ للأغيار.

(الآية ٢٤) - ﴿*مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾:

﴿*مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾: كلمة الفريق تعني جماعة يلتقون عند غايةٍ وهدفٍ واحدٍ، وكلّ جماعةٍ لها هدفٌ، فهما فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السّعير.

يضرب الحقّ ﷻ في هذه الآية المثل بأهمّ الحواسّ الإدراكيّة وهي السّمع والبصر، فهما المصدران الأساسيّان لأخذ المعلومات، إمّا المسموعة أو المرئيّة، ثمّ تتكوّن لديه قدرة الاستنباط ممّا سمعه بالأذن ورآه بالعين.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾: لا يشكّ كلٌّ من الأعمى أو الأصمّ أنّ من يرى أو يسمع هو خيرٌ منه، ولا يمكن أن يستوي الأعمى بالبصير، أو الأصمّ بمن يسمع، ولقد جاء الحقّ ﷻ بالأشياء المتناقضة ليحكُم الإنسان السّامع أو

القارئ لهذه الآية وليفصل بالحُكم الّذي يذكّره بالفارق بين الّذي يرى ومن هو أعمى، كذلك بين من يسمع ومن هو أصمّ، ومن الطّبيعيّ ألّا يستويان.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء، وقد قال ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجّ: من الآية ٤٦]؛ أي أنّ الإنسان قد يكون مبصراً أو له أُذُنٌ تسمع لكنّه لا يستخدم حاسّة الإبصار أو حاسّة السّمع فيما خُلِقت من أجله في التقاط مجاهيل الأشياء.

وقد مثّل الله ﷻ فريق الإيمان وفريق الشّرك والكفر بأنّهم كالأعمى والأصمّ والبصير والسّميع؛ لأنّ الإنسان عليه أن يأخذ الإيمان بالعلم ومن الآيات الدّالّة على وجود الله ﷻ، وأن يستخدم الحواسّ (السّمع والبصر) في أن يرى ممّا حوله من خلق الله ﷻ ما يقوّي إيمانه، ثمّ تأتي قصّة نوح عليه السلام، وهي قصّةٌ لها كثيرٌ من الأبعاد ولها خصوصيّاتٌ، فسيّدنا نوح عليه السلام بقي تسع مئة وخمسين عاماً وهو يدعو قومه، وكانت النّتيجة هي الإغراق:

(الآية ٢٥) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾:

لقد جاء نوحٌ عليه السلام بالرّسالة وبلّغ القوم قائلاً لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فهو يُنذر من عذاب الآخرة، ويدعو النّاس إلى عبادة الله ﷻ، والنّذير: هو من يُخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد، حتّى يستعدّ السّامع لملاقاة ذلك، ومادام أنّ نوحاً عليه السلام قد جاء نذيراً فالسّياق مستمرٌّ؛ لأنّ الحقّ ﷻ قال في الآية الّتي قبلها: ﴿*مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾،

فهناك فريقٌ عاصٍ وله نذيرٌ، أمّا الفريق الآخر فله بشيرٌ، فهو يبشّر المؤمن وينذر الكافر.

(الآية ٢٦) - ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾:

﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾: أي أنّه لا إله إلّا الله، فالعبادة لا تجوز إلّا أن تكون لآمرٍ، والمعبود يعطي أوامر: افعل هذا ولا تفعل هذا، فهي ليست فقط في طقوسٍ تؤدّى بشعائر، وإنّما هي منهج حياةٍ، وهي منهج الخير والنّور والأخلاق، ومنهج عبادة الله الواحد الأحد.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾: نحن نعلم أنّ نوحاً عليه السلام محسوبٌ على قومه وهم محسوبون عليه، لذلك قال لهم: إنّي أخاف عليكم عذاب هذا اليوم، فاستقبل الملأ من قوم نوحٍ عليه السلام هذا الأمر بالكفر والجحود.

فنوحٌ عليه السلام حريصٌ على قومه؛ لأنّه مرسلٌ من السّماء ويعلم بوجود عذابٍ في الآخرة، وقد يكون المعنى أنّ الله سبحانه وتعالى أوحى إلى سيّدنا نوحٍ عليه السلام بأنّهم إذا لم يؤمنوا فسيأتيهم عذابٌ أليمٌ، هو يوم الطّوفان، فيصحّ هذا المعنى ويصحّ أن يُراد به عذاب الآخرة.

(الآية ٢٧) - ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾:

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ﴾: الملأ: هم الّذين يملؤون العين، ويملؤون المكان، ويملؤون

السّاحات... ردّوا على سيّدنا نوحٍ عليه السلام بقولهم:

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: أي أنّه لا توجد لك ميّزةٌ تجعلك متفوّقاً علينا يا نوح، فمن الّذي سوّدك علينا لتكون أنت الرّسول؟

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾: الأراذل: جمع أرذل، مثل قولنا: أفاضل القوم جمع أفضل، والأرذل: هو الخسيس الدّنيء في أعين النّاس، فعندما تحدّثوا بذلك نظروا إلى الّذي لا يملك المال على أنّه من الأراذل، وهذا انقلابٌ في المقاييس والمعايير بالنّسبة إليهم، فهم وصفوا الّذين آمنوا بنوحٍ عليه السلام بأنّهم نفايات المجتمع، كما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿*قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء]، وقول الكافرين من ملأ قوم نوحٍ عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، يؤكّد وجود الفساد في هذا المجتمع، وأنّ الضّعاف هم الّذين اتّبعوا نوحاً عليه السلام.

﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾: البادي: هو الظّاهر، والظّاهر ضدّ المستتر، وهناك قراءة أخرى وهي: (باديْ الرّأي) أي بعد بدء الرّأي.

هنا الآية: باديَ الرّأي؛ أي ظاهر الأمر، فحين يُلقى إلى الإنسان أيّ شيءٍ فهو ينظر إليه نظرةً سطحيّةً، ثمّ بعد ذلك يُفكّر بإمعانٍ في هذا الشّيء، وحين يسمع الإنسان دعوةً أو قضيّةً فعليه ألّا يحكم عليها بظاهر الأمر، بل لا بدّ أن يبحث في القضيّة أو الدّعوة بتروٍّ وهدوءٍ.

هم قالوا لنوحٍ عليه السلام: أنت بشرٌ مثلنا، ومن اتّبعك هم الأراذل؛ لأنّهم نظروا إلى دعوتك نظرةً ظاهريّةً، ولو تعقّبوا دعوتك وتأمّلوها ونظروا في عواقبها بتدبّرٍ لما آمنوا بها.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾: وهم بهذا القول قد أنكروا بأنّه يمكن لهؤلاء أن يكون لهم فضلٌ؛ لأنّهم يعتقدون أنّ الفضل هو الغنى والجاه فقط، فأساؤوا الفهم في ذلك، فقد أنكروا فضل هؤلاء النّاس بالإيمان، فالآفة الّتي تنتاب بعض المجتمعات بأنّهم ينظرون إلى الإنسان من خلال ماله وغِناه، وليس من خلال أخلاقه.

(الآية ٢٨) - ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾: أي أخبروني.

﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾: إن كنت على بيّنةٍ موهوبة لي من الله ﷻ ونورٍ وفطرةٍ بالهداية وآتاني الحقّ ﷻ رحمةً؛ أي رسالةً.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾: أي خُفيت هذه المسألة عنكم.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾: فهل نجبركم على ذلك؟ لا يمكن؛ لأنّ الإيمان لا بدّ أن يأتي طواعيةً بعد إقناعٍ ملموسٍ وانفعالٍ مأنوسٍ واختيارٍ بيقين، وهنا نجد الهمزة الاستفهاميّة ثمّ فعل (نُلزم) ثمّ كاف المُخاطبة، وهنا نكون أمام استفهامٍ وفعلٍ وفاعلٍ مطمورٍ في الفعل، ومفعولٍ هو كاف المخاطبة، ومفعولٍ ثانٍ هو الرّحمة، فلا إلزام من الرّسول لقومه بأن يؤمنوا؛ لأنّ الإيمان يحتاج إلى قلوبٍ لا قوالب، فإكراه القوالب لا يزرع الإيمان في القلوب، والحقّ ﷻ يريد من خلقه قلوباً تخشع لا قوالب تخضع، ولو شاء سبحانه لأخضع النّاس جميعاً كما أخضع الكون كلّه له، والحقّ ﷻ هو

القائل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، وهكذا يطلب الحقّ ﷻ من الخلق أن يعرضوا أمر الإيمان على العقل، فالعقل ينفعل بالإدراك فيتعجّب بإبداع المُبدع وهنا يتيقّن بالإيمان، قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران]، والإكراه لا يكون إلّا بأمرٍ غير متبيّنٍ، أمّا الدّين فقد تبيّن الرّشد من الغيّ، فالدّين لا يأتي بالإلزام ولا بالإكراه أبداً، وهذا ردٌّ على المُتطرّفين والتّكفيريّين الّذين يريدون أن يسوقوا النّاس إلى الإيمان والإسلام بالقوّة.

(الآية ٢٩) - ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾:

جاء هذا القول على لسان الأنبياء جميعهم عليهم السلام؛ لأنّ العِوض في التّبادل قد لا يكون مالاً، قد يكون أجراً، والأجر أعمّ من أن يكون مالاً، لذلك يقول الحقّ ﷻ هنا على لسان نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ وهو قولٌ يدلّ على أنّ الأمر الّذي جاء به الرّسول هو أمرٌ نافع؛ لأنّ الأجرة لا تستحقّ إلّا مقابل منفعةٍ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾: ويوضّح هذا الرّدّ أنّ نوحاً عليه السلام لا يمكن أبداً أن يطرد أحداً من حظيرة الإيمان، فاليقين الإيمانيّ لا علاقة له بالثّروة أو الجاه أو الفقر والحاجة، ولا يمكن لرسولٍ أبداً أن يُخلي مكاناً من أتباعه الفقراء ليأتي الأغنياء فيحلّوا مكانهم، فالإيمان يتّسع للجميع، الكلّ سواسية

أمام الله ﷻ لذلك قال ﷻ للنّبيّ ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: من الآية ٢٨]، جاء هذا القول حتّى لا ينشأ فسادٌ أو عداءٌ بين المؤمنين برسول الله ولا يُقال: فلانٌ مقرّبٌ من النّبيّ وفلانٌ غير مقرّبٍ، لذلك كان عليه الصّلاة والسّلام إذا جلس يوزّع نظره على كلّ جلسائه حتّى يظنّ كلّ جالسٍ أنّ نظره لا يتحوّل عنه، وفي هذه الآية الكريمة الّتي نحن بصددها يقول ﷻ على لسان سيّدنا نوحٍ عليه السلام وهو يصف هؤلاء الضّعفاء:

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾: هذا بيانٌ أنّ نوحاً عليه السلام لن يطرد هؤلاء الضّعفاء؛ لأنّه سيلقى الله ﷻ وكذلك هؤلاء الفقراء، فماذا سيقول سيّدنا نوح عليه السلام لله ﷻ إذا طردهم؟ فقد آمنوا، والحقّ ﷻ يُحاسب الرّسل كما يُحاسب المرسلين، قال ﷻ: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف]، فنوحٌ عليه السلام يعلم أنّه مسؤولٌ أمام ربّه، ولكن هذا الملأ الكافر من قومه يجهلون هذه الحقيقة، لذلك يقول في نهاية هذه الآية:

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾: أي أنّهم لا يفهمون مهمّة نوحٍ عليه السلام، وأنّه مسؤولٌ أمام ربّه جلّ وعلا.

(الآية ٣٠) - ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾:

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾: يوضّح نوح عليه السلام أنّه لا يقدر على مواجهة المولى ﷻ إن طرد هؤلاء الضّعفاء.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي يجب ألّا تأخذكم الغفلة وتُنسيكم ما يجب أن تتذكّروا.

(الآية ٣١) - ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾: هكذا يسدّ نوحٌ عليه السلام على هذا الملأ أسباب الإعراض عن الإيمان كلّها، فإن ظنّوا أنّ الإيمان يتطلّب ثراءً فيقول لهم نوحٌ عليه السلام: أنا لا أملك خزائن الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: وإن طلبوا أن يكشف لهم الغيب، فالغيب علمه عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾: وكذلك لستُ ملكاً، ولم يدّع نوحٌ عليه السلام أنّه جنسٌ آخر من غير البشر، ويبيّن الله سبحانه وتعالى بأنّ الأنبياء عليهم السلام إنّما يأتون من جنس البشر، وهم أسوةٌ سلوكيّةٌ لهم.

(الآية ٣٢) - ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾: الجدال هو كلامٌ يقابل كلاماً آخر، والقصد عند كلّ طرفٍ متكلّمٍ أن يُزحزح الطّرف الآخر عن رأيه بحجّةٍ أو بشبهةٍ، وكلمة الجدال مأخوذةٌ من الجدْل؛ أي الفتْل، فتل الحبل هو أخذ شعراتٍ من الكتّان أو الحرير أو أيّ مادّةٍ، ثمّ ضمّ شعرتين إلى بعضهما ثمّ لفّ

شعرتين أيضاً وهكذا، حتّى يتمّ اكتمال الحبل، من هنا جاءت كلمة الجدْل.

وهنا نقف عند نقطةٍ، وهي أنّ الجدال يختلف عن المِراء؛ لأنّ الجدال إنّما يكون لحقٍّ، والمِراء يكون بعد ظهور الحقّ، فالجدال مطلوبٌ، يقول الحقّ ﷻ لنبيّه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، وكذلك يقول ﷻ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: من الآية ١]، فالجدال مطلوبٌ لنصل إلى الحقّ شرط أن يكون جدالاً حسناً لا احتكاك فيه ولا إيذاء.

﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾: نحن نعلم أنّ نوحاً عليه السلام لبث في قومه ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً، معنى ذلك أنّ جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً.

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: بعد أن ملّوا من جدال نوحٍ عليه السلام طلبوا أن يُنزل بهم العذاب.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: استبطؤوا مجيء هذا العذاب؛ لأنّ نوحاً عليه السّلام لبث فيهم ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً.

(الآية ٣٣) - ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾: الله ﷻ هو الّذي يقدّر للعذاب أواناً، ولا يعجل بعجلة العباد حتّى تبلُغ الأمور ما أراد.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾: وهم لن يُعجزوه ﷻ ولن يفلتوا منه، ولا توجد قوّةٌ في الكون يمكن أن تمنع مشيئته ﷻ أو أن تتأبّى عليه.

(الآية ٣٤) - ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

المعنى هنا: إن كان الله ﷻ يريد أن يُغويكم، فلن تنتفعوا بالنّصيحة إن أردت أن أنصحكم، فالآية فيها تعدّد شرطين، مثال: حين يطرد مدير المدرسة طالباً عقاباً على خطأٍ معيّنٍ، فالطّالب يمكن أن يستعطف المدير، فيقول له المدير: إن جئتني غداً أقبل اعتذارك إن كان معك والدك، وهو شرطٌ متأخّرٌ، ولكن كان يجب أن يكون متقدّماً، وفي الآية الكريمة الّتي نحن بصددها جاء الشّرط الأوّل متأخّراً، لكن هل يُغوي الله ﷻ عباده؟ الجواب: بالتّأكيد لا، فسبحانه يهدي ولا يُغوي، والغواية هي الضّلال والبعد عن الطّريق المستقيم، ويقول الحقّ ﷻ عن نبيّنا ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النّجم]، وقد ذكر الله ﷻ لنا كلمات الشّيطان بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر]، فهل أغوى الله ﷻ الشّيطان؟ الجواب: إنّ الله ﷻ لا يُغوي، ولكنّه يترك الخيار للمكلّف، إن شاء أطاع، وإن شاء عصى، والله ﷻ وجّه الإنسان إلى الصّلاح وليس إلى الضّلال، فالاختيار ليس مقصوراً على الإغواء، لكنّ الله ﷻ ترك لك الاختيار هدايةً وإغواءً، وأرشدك إلى الهداية، والإنسان قادرٌ على أن يهتدي وقادرٌ على أن يضلّ، فإذا ضلّ فعلى مسؤوليّته.

(الآية ٣٥) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾: جاء هذا القول في صلب قصّة نوحٍ عليه السلام، وقد

يكون ممّا أوحى به الله ﷻ إلى نوحٍ عليه السلام، أو يكون المراد به أنّهم قالوا للنّبيّ محمّدٍ ﷺ هذا الكلام، والافتراء: هو الكذب المتعمّد الّذي يُناقض الواقع، وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة في الشّطر الأوّل منها، ولو جاء بالقول دون احتباكٍ لقال ﷻ: (قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنتم بريئون منه، وإن لم أفتري فعليكم إجرامكم وأنا بريءٌ)، لكنّه حذف من الشّقّ المقابل من شقٍّ آخر، وهذا ما يسمّى الاحتباك في اللّغة؛ أي قل: إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريءٌ ممّا تجرمون، لكنّ الله ﷻ لم يقل ذلك، وإنّما قال: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ لأنّكم أنتم نسبتم هدايتي بأنّها إجرامٌ، فقال ﷻ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ]، لم يقل: عمّا تجرمون، فهو عليه السلام لم يُقابل إيذاءهم القوليّ والماديّ بإيذاءٍ قوليّ، وهذا من عظمة القرآن الكريم وعظمة الدّعوة إلى الله جلّ وعلا، وكذلك ذكر الله ﷻ ما جاء على لسان رسول الله ﷺ عندما قال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: من الآية ٢٤]، وهذا ارتقاءٌ في الجدل يُناسب رحمة رسول الله ﷺ الّذي أرسله الله ﷻ للعالم كلّه.

(الآية ٣٦) – ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾: بعد ألف عامٍ إلّا خمسين من الجدال والنّقاش والمُحاجّة أوحى الله ﷻ لنوحٍ عليه السلام أنّ الأمر

قد انتهى، فلن يؤمن غير مَن آمن، وخُتمت المسألة بعد تسع مئةٍ وخمسين عاماً، وهذا يُعطينا تبريراً لقول نوحٍ عليه السلام في دعائه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح]، فقد دعاهم عليه السلام إلى الإيمان زمناً طويلاً فلم يستجيبوا، وقد أوحى الله سبحانه وتعالى له أنّهم لن يؤمنوا.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾: الابتئاس: هو حزنٌ مُحبطٌ.

(الآية ٣٧) - ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾: الفُلك: تأتي للمفرد وتأتي للجمع، فقد علّم الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام، وبيّن له أنّه سيكون إغراقٌ للكافرين، وأوحى إليه أن يصنع السّفينة، وهناك فارقٌ بين الصّنعة والحرفة، فالصّنعة أن توجِد معدوماً، كصانع الأكواب أو صانع الكراسي.. أمّا الّذي يقوم على صيانة الصّنعة فنسمّيه حرفيّاً، ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي أوجد شيئاً من عدمٍ، وكما قيل: إنّ نوحاً عليه السلام كان قد زرع شجرةً وعاشت معه كلّ هذه المدّة الطّويلة، فتضخّمت في الجذع والفروع، وبدأ نوحٌ عليه السلام في شقّ الشّجرة ليصنع منها السّفينة الّتي بلغ طولها كما قيل: ثلاثمئة ذراعٍ، وعرضها خمسون ذراعاً، وارتفاعها ثلاثون ذراعاً، تضمّ ثلاثة أدوارٍ -كما ورد في الكتب- وذلك كي تتّسِع للمؤمنين ولزوجين من كلّ نوعٍ من حيوانات الأرض ودوابّها وهوامها وسباعها ووحوشها وكلّ شيءٍ، وقد علّمه الله سبحانه وتعالى بالوحي كيف يصنع السّفينة.

﴿بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾: أي بحفظنا ورعايتنا، كما قال ﷻ للنّبيّ الكريم: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطّور: من الآية ٤٨]، وكذلك قال ﷻ في قصّة سيّدنا موسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: من الآية ٣٩]، وهنا قال ﷻ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ فإذا اعترضتك أيّ عقبةٍ فسوف نلهمك بما تواجه به تلك العقبات، وحين صنع نوحٌ عليه السلام الفلك احتاج لألواحٍ خشبيّةٍ ولا بدّ أن تتماسك هذه الألواح، فربطها بحبالٍ مجدولةٍ وأحكم الرّبط ممّا لا يسمح بتسرّب الماء إلى داخل السّفينة.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾: أي لا تحدّثني في أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر، فالله ﷻ يعلم أزلاً ومسبقاً بأنّ عواطف نوحٍ عليه السلام ستتحرّك اتّجاه ابنه، فبيّن له أنّ الأمر انتهى قبل أن يأتي الإغراق، هكذا علم نوحٌ عليه السلام أنّ صنع السّفينة مرتبطٌ بلون العقاب الّذي هو الغرق لمن كفروا برسالته، فهو ومن آمنوا معه سوف ينجون، أمّا من كفر فلن ينجوا.

(الآية ٣٨) – ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾:

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾: استخدم الفعل المضارع، وكأنّنا نرى نوحاً عليه السلام يصنع الفلك الآن، ونلحظ في قول الحقّ ﷻ: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ تنفيذ الأمر الّذي صدر من الله ﷻ إلى نوحٍ عليه السلام حين قال له في الآية السّابقة: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾: كان السّادة والكبراء من قوم نوحٍ عليه السلام يمرّون عليه وهو يصنع السّفينة فيسخرون منه، ويقولون: أصبح نجّاراً بعد ما ادّعى من أمر النّبوّة، ثمّ يتساءلون: كيف تصل هذه السّفينة من الموصل إلى البحر؟ ولكن لم يكونوا قد علموا ما علمه نوحٌ عليه السلام من أنّ الماء هو الّذي سوف يأتي ليحمل السّفينة وليست السّفينة هي الّتي ستذهب إلى البحر أو إلى النّهر.

(الآية ٣٩) - ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: هكذا كان نوح عليه السلام يجيبهم، وأمر الإغراق سيحدث مستقبلاً، فإن جاء الكلام عن حدثٍ قريبٍ تقول: سيأتي، سيعلمون، أمّا الاستقبال البعيد فتقول: سوف، ونحن نعلم أنّ نوحاً عليه السلام قضى سنواتٍ عديدةً وهو يصنع السّفينة، لذلك جاء بـ (سوف)؛ لتدلّ على أوسع مدى زمنيّ.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: سيعلمون لمن سيأتي العذاب، لنوحٍ عليه السلام ومن معه، أم للّذين كفروا من ملأ نوحٍ، لذلك كانوا يقولون له استهزاءً: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: من الآية ٣٢].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: يحلّ ضدّ يرحل، وهي تفيد النّزول من أعلى إلى مكان الإقامة، حلّ بالمكان أي نزل ليقيم به، وقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿مُّقِيمٌ﴾؛ أي أنّ العذاب الّذي سيحلّ بهم عذابٌ دائمٌ.

(الآية ٤٠) - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: كلمة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ تدلّ على الغاية، وكلمة ﴿أَمۡرُنَا﴾ تدلّ على الطّوفان، فالآن بدأت القصّة، يوجد في قصّة نوح عليه السلام أكثر من مرحلةٍ، المرحلة الأولى هو أمرٌ من الله سبحانه وتعالى أن يصنع الفلك، وهذا استغرق وقتاً طويلاً، حتّى جاء الأمر بالطّوفان.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: فار؛ أي أنّ الماء وصل إلى درجة الغليان، والتّنور: هو المكان الّذي يتمّ فيه الخبز، وخروج الماء من غير مظانّه، من مكان النّار والخبز، علامةٌ مميّزةٌ تنبّه نوحاً عليه السلام بأنّ الموضوع قد انتهى، وأنّ الإغراق سيأتي، ليستعدّ لحمل من يريد نجاته من المؤمنين وما يلزمهم من متاع الدّنيا ويضعها في السّفينة، وقد اختلف العلماء في تفسير كلمة ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾، منهم من قال: إنّ التّنور هو المكان الّذي كان آدم عليه السلام يخبز فيه، أو هو المكان الّذي كانت تعمل فيه حواء، أو هو بيت نوحٍ عليه السلام، أو هو بيت سيّدةٍ عجوزٍ.. تلك التّفسيرات كلّها لا تفيد ولا تضرّ، المهمّ أنّ فوران التّنور كان هو العلامة ليعلم نوحاً عليه السلام بأنّ الأمر قد جاء.

﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾: كلمة ﴿كُلّٖ﴾ المنوّنة تفيد التّعميم؛ أي احمل في السّفينة من كلّ شيءٍ تطلبه حياة النّاجين، من أصناف النّباتات والحيوانات جميعهم من دون استثناءٍ، كلمة ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ تدلّ

على أنّ كلمة (زوجٍ) هي مفردٌ معه مثله، بدليل قول الحقّ ﷻ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النّساء: من الآية ١]، وواصل نوح عليه السلام تنفيذ أمر الحقّ ﷻ.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾: أي الّذي رفض أن يؤمن من أهله.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: بالنّسبة لبقيّة النّاس، وهكذا شاء الحقّ ﷻ أن يستبقي الحياة بنجاة كلّ ما تحتاجه في السّفينة، ويُقال: إنّهم عاشوا في تلك السّفينة عامين، والله أعلم.

(الآية ٤١) - ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾:

هذه هي المرحلة الأخيرة في قصّة السّفينة، قال نوحٌ عليه السلام لمن آمن: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ تحت عنوان: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ﴾، فهذا القول منسوبٌ لنوحٍ عليه السلام؛ لأنّه أضاف: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والرّكوب يقتضي أن يكون الرّاكب على المركوب ومستعلٍ عليه، والاستعلاء يقتضي أن يكون الشّيء المستعلى عليه في خدمة المُستعلي، فكأنّ تسخير الله ﷻ للسّفينة إنّما جاء ليخدم المُستعلي، ولكنّ الله ﷻ قال: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ ولم يقل: (اركبوا عليها)، ليعطينا الحقّ ﷻ لقطةً أنّ طريقة صنع السّفينة الّتي صنعها نوحٌ عليه السلام بوحيٍ من الله ﷻ كانت على أفضل نظام بناء السّفن الحديثة، ولم يصنعها بطريقةٍ بدائيّةٍ، بل تمّ بناؤها بما يتيح لهم السّكن فيها، وخصوصاً أنّها تحمل وحوشاً وحيوانات بجانب البشر، لذلك كان لا بدّ من بناء طبقاتٍ وأدوارٍ فيها.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾: يبيّن لنا أنّها صُنعت لتُنجي من الغرق، لذلك لا بدّ أن تسير بالرّاكبين فيها إلى مكانٍ لا يصله الماء، ولا بدّ أن يكون هذا المكان عالياً ليتيح الرّسوّ كما أتاح الفيضان عمليّة الجريان، فجريانها إنّما يتمّ بمشيئة الله ﷻ، وهم يركبون فيها لا لمكانتهم الشّخصيّة ولكن لإيمانهم بالله تعالى، فالسّفينة لله ﷻ أمراً ولرسوله صناعةً.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: يقصد أنّ هؤلاء المؤمنين برسالة نوحٍ عليه السلام كانوا من البشر، ولم يطبّقوا -كغالبيّة البشر- التّكاليف كلّها؛ لأنّهم ليسوا ملائكةً، لذلك قدّر الله ﷻ إيمانهم، وعفى عن بعض الذّنوب الّتي ارتكبوها، ولم يؤاخذهم بها.

(الآية ٤٢) - ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢﴾:

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾: الجري هو السّير السّريع، سارت السّفينة وأسرعت وجرت بهم في هذا الموج الهائج الّذي هو كالجبال، وهذا يدلّ على أنّ هذه السّفينة مسيّرةٌ بقوّة بسم الله، لا تؤثّر فيها الأمواج.

﴿فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾: مثّل الله ﷻ الموج بالجبال، وهذا يمثّل مدى علوّ الأمواج الّتي عمّت الأرض جميعاً في هذه الأثناء.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾: تحرّكت عاطفة الأبوّة عند نوحٍ عليه السلام وقد قال له الله ﷻ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: من الآية ٣٧]، **الأمر** منتهٍ ومع ذلك تغلّبت عاطفته تجاه ابنه.

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾: أي في مكانٍ عالٍ منعزلٍ على جبلٍ قبل أن تغمره المياه، فهو موضعٌ عزل نفسه فيه جانباً.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾: هذا من باب التّلطّف.

﴿ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: قال له: تعال وانضمّ إلى ركّاب السّفينة مع أبيك، فرفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أنّ الجبل سيحميه.

(الآية ٤٣) - ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾: يعصمني: أي يمنعني، ظنّ أنّه سيحميه من الماء، فلن يغرق وأنّه سينجو إن أوى إلى جبلٍ طلباً للحماية من الماء الغزير، لكنّ الأمر انتهى، وهذا اللّجوء لا يمكن أن يفيد ابن نوحٍ.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: علم نوحٌ عليه السلام بأنّه لا نجاة للكافر، والنّجاة فقط لمن آمن.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾: فرّق الموج بين الأب والابن، وغرق الابن.

(الآية ٤٤) - ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾: البلع: هو مرور الشّيء من الحلق ليسقط في الجوف، والقائل هنا هو من تنصاع لأوامره الأرض.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾: أي توقّف يا مطر، وهنا يُنهي الله ﷻ الطّوفان الّذي أغرق الدّنيا بأكملها، أوقف المصبّ وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء بلحظاتٍ.

﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾: غيض: أي خفّ الماء، نقص.

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: الأمر أمر إلهٍ.

﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾: انتهى الأمر فاستوت السّفينة على الجبل الّذي اسمه الجوديّ.

﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: من الّذي قال: بعداً للقوم الظّالمين؟ كأنّه نوديَ بعد أن نقص الماء، واستوت السّفينة على الجوديّ، قيل: بعداً للقوم الظّالمين؛ أي بَعِدوا وانتهى أمرهم، وبُعداً لهم بُعداً نهائيّاً إلى يوم القيامة لما فعلوه، وقد أصبحوا غرقى وانتهى الأمر.

(الآية ٤٥) - ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾: ذكرنا أنّ عاطفة الأبوّة عاطفةٌ محمودةٌ، يشحن بها الحقّ ﷻ قلب الأب على قدر حاجة الأبناء، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودةً في الآباء لما تحمّل أيّ أبٍ أو أيّ أمٍّ متاعب من أجل تربية الأبناء، لكن الأنبياء لا بُنوّة لهم إلّا بُنوّة الاتّباع، فقد نادى نوحٌ عليه السلام ربّه ﷻ أنّ ابنه جزءٌ منه، وأنّه تعالى أمره أن يصعد معه في السّفينة أهله.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: فنوحٌ عليه السلام يملك حقّ الدّعاء؛ لأنّه يطلب تحقيق قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾.

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: هذا إقرارٌ بأنّ الله سبحانه وتعالى لا يُخطئ أبداً، وهو أحكم الحاكمين؛ لأنّ الابن قد غرق وانتهى الأمر، ولا بدّ أنّ الغرق له حكمةٌ.

(الآية ٤٦) - ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾: أي إنّه ليس من أهل ولايتك المتعلّقة بمنهجك الّذي نزل عليك من السّماء، يريد الله سبحانه وتعالى هنا أن يلفت نبيّه صلى الله عليه وسلم إلى أنّ أهليّة الأنبياء ليست أهليّة الدّم واللّحم، لكنّها أهليّة المنهج والاتّباع، وإذا قاس نوحٌ عليه السلام ابنه على هذا القانون فلن يكون ابناً له، ألم يقل نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام عن سلمان الفارسيّ رضي الله عنه: «**سلمان منّا أهل البيت**»[1]؟ فالبنوّة بالنّسبة إلى الأنبياء عليهم السلام هي اتّباعٌ قبل كلّ شيءٍ.

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾: وكأنّ البنوّة هنا عملٌ وليست ذاتاً، والمذكور هو العمل، فعمل ابن نوحٍ جعله غير صالحٍ ليكون ابناً لنوحٍ عليه السلام، فهذا هو المحكوم، ليس الدّم واللّحم، إنّما هو الاتّباع والمنهج الإلهيّ للأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.

---

(١) المستدرك على الصّحيحين: ج٣، ص٦٩١، الحديث رقم (٦٥٣٩).

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: الحقّ ﷻ يطلب من نوحٍ عليه السلام هنا أن يفكّر جيداً قبل أن يسأل، فهو ﷻ يربّي الأنبياء عليهم السلام ويعظهم.

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: هذه تعليمات الله ﷻ لسيّدنا نوحٍ عليه السلام ألّا يسأله عن هذا الأمر؛ لأنّه منتهٍ ومقضيٌّ فيه.

(الآية ٤٧) - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أي لجأ إلى الله ﷻ مباشرةً، فقال نوحٌ عليه السلام: إنّي أعوذ بك؛ أي أنت القادر على أن تمنع قلبي من ذلك يا ربّ، فالإنسان لا يعوذ بالله ﷻ من شيءٍ إلّا إن كانت قوّته لا تقدر على أن تمتنع عنه.

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: يدعو نوحٌ عليه السلام الله ﷻ أن يغفر له ما قاله، وهو هنا يقرّ بأنّه لمّا أحبّ أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتم هذا السّؤال، ولكنّ الله ﷻ وحده القادر على أن يمنع السّؤال، لذلك طلب سيّدنا نوحٌ المغفرة والرّحمة من الله ﷻ حتّى لا يكون من الخاسرين.

(الآية ٤٨) - ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ﴾: قيل: فعلٌ مبنيٌّ للمجهول.

﴿ٱهْبِطْ﴾: وكأنّه كان مرتفعاً بأمر الله ﷻ، ثمّ جاء أمر: اهبط بسلامٍ.

﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾: فألقى الله ﷻ السّلام والأمن على نوحٍ عليه السلام وعلى من معه، والسّلام هو الأمن والاطمئنان، فلم يعد هناك من الكافرين الّذين عاندوه تسع مئة وخمسين عاماً، لم يعد هناك من ينغّص على نوحٍ عليه السلام ويُكدّر عليه.

تدلّ هذه الآية على أنّ نوحاً عليه السلام قد تلقّى الأمر بالنّزول من السّفينة ليُباشر مهمّته الإيمانيّة في أرضٍ فيها مقوّمات الحياة ممّا حمل في تلك السّفينة، من كلٍّ زوجين اثنين من الحيوانات ومن النّباتات... مع المؤمنين من البشر الّذين أنجاهم الله ﷻ من الغرق، وأغرق الّذين قالوا عنهم: بأنّهم أراذل.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾: البركة: زيادة الخير والنّماء والسّعادة، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: من الآية ٩٦]، فكلمة: ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ لها دليلٌ؛ أي أنّ الله ﷻ يُبارك في القليل ليجعله كثيراً، فقد كانوا قلّةً في السّفينة فكيف سيملؤون الأرض لولا بركة الله تعالى؟! نقول: هذا الشّيء مُباركٌ، كالطّعام الّذي يأتي به الإنسان ليكفي اثنين ولكنّه يُفاجأ بأنّه يكفي عشرة، فالشّيء المُبارك هو القليل الّذي يؤدّي ما يؤدّيه الكثير مع مظنّة أنّه لا يفي، لذلك جاءت كلمة بركاتٍ بدقّة الحكيم الخبير؛ لأنّ ما يحمله نوحٌ عليه السلام من كلٍّ زوجين اثنين يحتاج إلى بركات الحقّ ﷻ ليتكاثر ويكفي.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾: تتضمّن أهل نوحٍ عليه السلام الّذين آمنوا معه كذلك أمم الوحوش والطّيور والحيوانات والدّوابّ والنّباتات، إنّها إشارةٌ إلى

الأمّة الأساسيّة وهي أمّة الإنسان أوّلاً، وإلى الأمم الخادمة للإنسان، وهي البقيّة من الحيوانات والنّباتات و... وهكذا توفّرت مقوّمات الحياة للمؤمنين ليتفرّغ نوحٌ عليه السلام مع قومه إلى المهمّة الإيمانيّة في الأرض.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾: السّين تدلّ على أنّ الأمر سيكون في المستقبل.

﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: هذا القول يُناسب طبيعة الإنسان، فالمؤمنون مع نوحٍ عليه السلام كانوا هم الصّفوة الّذين بَقوا على وجه الأرض، لكن سيمضي زمنٌ تطرأ الغفلة على بعضٍ منهم، ثمّ يأتي جيلٌ من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة الصّالحة، وتحيط به أجيالٌ تاليةٌ، بعدها تأتي مؤثّراتٌ فينفصلون عن المنهج ويبدؤون بعبادة الأصنام، لذلك في هذا يقول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «**ينامُ الرّجل النّومةَ فَتُقْبَضُ الأمانةُ من قلبه، فيظلّ أَثَرُها مثل أثَرِ الوَكْتِ ثمّ ينامُ النّومة فتُقْبَض، فيبقى أَثَرُها مثل المَجْلِ كجَمْر دحرجته على رِجْلِك، فَنَفِطَ فتراه مُنْتَبِراً وليس فيه شيءٌ، فيصبح النّاسُ يتبايعون فلا يكاد أحدهم يؤدّي الأمانة، فيُقال: إنّ في بني فلانٍ رجلاً أميناً، ويُقال للرّجل: ما أَعْقَلَه وما أَظْرَفَه وما أَجْلَدَه، وما في قلبه مثقالُ حبّة خردلٍ من إيمانٍ**»[1]، الوَكْت: الأثر اليسير، المَجْل: أي الماء الّذي يكون بين الجلد واللّحم، والمجل قشرةٌ رقيقةٌ يجتمع فيها ماء من أثر العمل، يقولون: مجلت اليد؛ أي مرنت وظهر فيها ما يشبه البثر، منتبراً: أي مرتفعاً منتثراً مثل انتبار الجرح والورم الّذي فيه، الخردل: نوعٌ من أنواع التّوابل

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الرّقاق، باب رفع الأمانة، الحديث رقم (٦١٣٢).

يُضرب بها المثل للصّغر، وهكذا تطرأ الغفلة على أصحاب المنهج، ويقول النّبيّ ﷺ: «**تُعرَض الفتنُ على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً، فأيّ قلبٍ أُشربها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأيّ قلبٍ أنكرها نُكِت فيه نُكتةٌ بيضاء، حتّى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصّفا فلا تضرّه فتنةٌ ما دامت السّماوات والأرض، والآخر أسْوَدُ مُرْبَادّاً كالكُوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا يُنكر مُنكراً إلّا ما أُشرِب من هواه**»[1]، أُشربها: أي خلط قلبه حبّ الفتن كأنّه أُسقيها، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: من الآية ٩٣]، نُكت: النّكت: أن تضرب في الأرض بقضيبٍ فيؤثّر فيها أي أنّ الفتنة تترك أثراً في القلب، الكوز المجخّي؛ أي المائل الّذي يكبّ ويصبّ ما فيه، والمراد هنا المائل عن الاستقامة والاعتدال، فشبّه القلب الّذي لا يعي خيراً بالكوز المائل الّذي لا يثبُت فيه شيءٌ؛ لأنّ الكوز إذا مال انصبّ ما فيه.

والحقّ ﷻ يتحدّث في هذه الآية عن الّذين بقوا مع نوحٍ عليه السلام، وهم صفوةٌ من المؤمنين، لكن منهم من ستطرأ عليه الغفلة، وسيمتّعهم الله ﷻ أيضاً بمتاع الدّنيا، ولن يضنّ عليهم، ولكن سيلحقهم بالعذاب بعد ذلك، فإذا جاء جيلٌ بعد جيلٍ على الغافلين فإنّهم سيخضعون لمؤثّرين اثنين، المؤثّر الأوّل الغفلة والمؤثّر الثّاني الأسوة بالغافلين من السّابقين عليه، ونحن نعلم أنّ من ذريّة نوحٍ عليه السلام قوم عاد الّذين أرسل الحقّ ﷻ إليهم هوداً عليه السلام،

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وإنّه يأرز بين المسجدين، الحديث رقم (١٤٤).

وكذلك قوم ثمود الّذين أرسل ﷻ إليهم صالحاً عليه السلام، وقوم لوط عليه السلام... وهؤلاء جميعاً رانت الغفلة على قلوبهم.

(الآية ٤٩) - ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ﴾: كلمة (تلك) إشارةٌ وخطابٌ، والمُخاطب هو رسول الله ﷺ، والتّاء إشارةٌ إلى السّفينة وما تبعها من أنباء الغيب، ولم يكن رسول الله ﷺ معاصراً لها ولا يعلمها هو ولا أحدٌ من قومه، فلم يُعلم عنه ﷺ أنّه جلس إلى معلّمٍ ولم يُذكر عنه أنّه قرأ في كتابٍ، ولذلك قال ﷻ في آياتٍ أُخرى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص]، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]، فما دمت يا محمّد لم تقرأ ولم تتعلّم عن معلّمٍ فمن علّمك؟ إنّه الله ﷻ الّذي علّم الرّسول ﷺ، وهو الّذي قصّ عليه قصّة نوحٍ عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة والعبرة لرسول الله ﷺ حتّى يثق بأنّ كلّ رسولٍ إنّما يصنع حركته الإيمانيّة المنهجيّة على عين الله ﷻ، وأنّه سبحانه لن يُسْلمه إلى خصومه وأعدائه، لذلك يأتي قوله ﷻ بعدها:

﴿فَٱصْبِرْ ۖ﴾: لأنّك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوحٍ عليه السلام الّذي صبر ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً.

﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾: فالعاقبة والنّتيجة والمآل والنّصر والفرج للمتّقين، فمن هم المتّقون؟ المتّقي: هو الّذي يتّقي غضب الله ﷻ ويتّقي نار جهنّم؛ أي الّذي يمتثل لأوامر الله ﷻ، لذلك عندما سُئل الإمام عليّ كرّم الله وجهه عن التّقوى قال: "التّقوى هي العمل بالتّنزيل والرّضى بالقليل والخوف من الجليل والاستعداد ليوم الرّحيل".

(الآية ٥٠) - ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠﴾:

سُمّيت هذه السّورة باسم النّبيّ هود عليه السلام، وقومه هم عادٌ الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم الّذين كانت مساكنهم بالأحقاف في اليمن في جبال الرّمل، هذا ما قاله القرطبيّ في تفسيره، وقال: إنّ هناك عادين، عاداً الأولى وعاداً الثّانية أو عاداً الأخرى، هؤلاء الّذين يتحدّث المولى ﷻ عنهم هم عاد الأولى.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾: يخبرهم الله ﷻ بأنّ هوداً عليه السلام هو أخوهم، ولا يمكن للأخ أن يريد العنَت لإخوته، بل هو ناصحٌ ومأمونٌ عليهم وعلى ما يبلّغهم به.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾: هذا للإيناس.

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: يدعوهم إلى عبادة الله ﷻ وحده.

﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾: فهم اتّخذوا غير الله جل جلاله إلهاً، وهذا قمّة الافتراء.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾: أي كاذبون، متقوّلون على الله ﷻ.

(الآية ٥١) - ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾:

﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾: كأنّ هوداً عليه السلام يقول لهم: ما الّذي يشقّ عليكم فيما آمركم به وأدعوكم إليه؟ إنّني أُقدّم لكم هذا البلاغ من الله ﷻ ولا أسألكم عليه لا أجراً ولا نقوداً ولا شيئاً، فليس من المعقول أن أنقلكم ممّا ألفتم من عبادة الأصنام ثمّ آخذ مالاً مقابل ذلك، ولا أجمع عليكم مشقّة ترك ما اعتدتم عليه وأجر الدّعوة.

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾: فطرني؛ أي خلقني، فأجري على من خلقني ﷻ، وقد أعدّني لهذه الرّسالة، والفطرة هي تكوينٌ أساسيٌّ في الإنسان وهي فطرة الإيمان.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: فكان يجب على قوم هود أن يعقلوا هذه الفائدة الجمّة، وهي المنهج الإلهيّ الّذي جاء به هود عليه السلام.

(الآية ٥٢) - ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾:

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾: الاستغفار هو إقرارٌ بالتّقصير وارتكاب الذّنوب، فحين نطلب المغفرة من الله ﷻ فهذا إعلانٌ بالإيمان واعترافٌ بالذّنب، وعندما يُرسل المولى ﷻ رسولاً فأوّل ما ينزل به الرّسول هو

تصحيح العقيدة في قمّتها للنّاس، فيدعوهم إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ يتلقّون عنه التّشريع، هذا حلالٌ هذا حرامٌ، وهنا يطلب هودٌ عليه السلام من قومه الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وعبادته، والأخذ بمنهجه جل جلاله، ولا يقتصر ذلك على الطّقوس فقط من الشّهادة والصّلاة والعبادات المطلوبة، ولكنّ عبادة الله سبحانه وتعالى هي أن يؤدّي الإنسان الشّعائر والعبادات، ويُتقن كلّ عملٍ على ضوء منهج الله تعالى، ولا يعزل الدّين عن حركة الحياة فيقدّم الخير للنّاس جميعاً، فالإسلام بناءٌ يقوم على أركانٍ، هذه الأركان هي العبادات، وليست هي كلّ الإسلام، لذلك لا يمكن حصر الإسلام في أركانه فقط، فالإسلام هو كلّ حركةٍ في الحياة تمتثل فيها لأمر الله سبحانه وتعالى، وأوامر الله جل جلاله هي لخير النّاس جميعاً، وهي الّتي تُصلح الفساد، والاستغفار لا يكون إلّا عن ذنوبٍ سبقت، وبما أنّ هوداً عليه السلام أوّل ما قاله لقومه: استغفروا، فإذاً هم ارتكبوا ذنوباً حتّى طلب منهم الاستغفار، إضافةً إلى أنّهم عبدوا الأصنام.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: التّوبة تقتضي العزم على ألّا يُنشئ الإنسان ذنوباً جديدةً؛ أي عدم الإصرار وعدم العودة للذّنب.

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾: قد يسأل أحدهم: ما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونيّة؟ وهناك بعض النّاس –مع الأسف– يسخرون من صلاة الاستسقاء والدّعاء من أجل نزول المطر، والصّلاة على النّبيّ صلى الله عليه وسلم من أجل تفريج الكرب، وقد جاء في قصّة نوحٍ عليه السلام مع قومه قوله: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾ [نوح]، حيث ربط نوحٌ عليه السلام الاستغفار بإنزال المطر، وهنا العمليّة ذاتها، لكن سيقول لك

أحدهم: هذه مسألةٌ كونيّةٌ، إنّها مسألة غيومٍ وهواءٍ ورياحٍ وضبابٍ وأمطارٍ، فما علاقتها بالاستغفار؟ ونحن نجيب عليه بالّذي تعلّمناه، فنقول: إنّ للكون مالكاً لكلّ ما فيه من جمادٍ ونباتٍ وحيوانٍ، هذا المالك قادرٌ، ولا يستطيع كائنٌ أو مخلوقٌ أن يعصي له أمراً، فإذا أراد شيئاً فأمره بين الكاف والنّون، وإذا أراد شيئاً فإنّما يقول له: كن، فيكون، وهو قادرٌ على أن يُخرج الأشياء عن طبيعتها، فإذا جاءت غيمةٌ ونحسبُ أنّها ممطرةٌ، يستطيع هو أن يأمرها ألّا تمطر، فهو القادر على أن يرسل السّماء مدراراً، فنحن نستغفر من القادر والمالك ﷻ، ونطلب الاستغاثة منه جلّ وعلا.

﴿مِّدۡرَارًا﴾: المدرار: هو الّذي يدرّ بتتابعٍ لا ضرر فيه؛ لأنّ المطر قد يهطل بطغيانٍ ضارٍّ كما فتح الله ﷻ أبواب السّماء بماءٍ منهمرٍ عندما دعا سيّدنا نوحٌ عليه السلام، أمّا المدرار فهو المطر الّذي يتوالى تواليا مُصلحاً لا مفسداً، ومتى أرسل الله ﷻ المطر مدراراً متتابعاً مُصلحاً فالأرض تخضرّ وتعمر الدّنيا، فنزداد قوّةً إلى قوّتنا.

وقد وردت كلمة ﴿مِّدۡرَارًا﴾ في القرآن الكريم ثلاث مرّاتٍ، في سورة (الأنعام) وسورة (هود) وسورة (نوح).

﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾: ممّا يدلّ على أنّهم كانوا أقوياء وأصحاب حضارة.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾: فمن يتولّى فهو يجرم في حقّ نفسه؛ لأنّ إجرام العبد إنّما يعود على نفسه، كقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: من الآية ٤٤].

(الآية ٥٣) - ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾:

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾: ينكرون أنّ هوداً عليه السلام قد أتاهم ببيّنةٍ أو معجزةٍ، فهم يريدون بيّنةً ودليلاً ومعجزةً، والمعجزة أو البيّنة هي أمارةٌ دالّةٌ على صدق الرّسول في البلاغ عن الله عز وجل، ولم يذكر في هذه الآية معجزة هود عليه السلام.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾: هم سمّوا الأصنام آلهةً، وقالوا: نحن لا نتركها بمجرّد كلامك.

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾: أي نحن لا نصدّقك.

(الآية ٥٤) - ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤﴾:

﴿إِن نَّقُولُ﴾: أي ما نقول إلّا اعتراك، جاءت ﴿إِن﴾ هنا بمعنى النّفي.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾: ما نقول لك يا هود إلّا أنّ آلهتنا هي السّبب في إصابتك بسوءٍ؛ لأنّك سفّهت الآلهة وادّعيت بأنّها ليست آلهةً، وجئت بإلهٍ جديدٍ من عندك، فأصابتك الآلهة بسوءٍ؛ أي أصبحت مجنوناً، فأخذت تخلط في الكلام الّذي لا معنى له.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾: فكان ردّ هودٍ عليه السلام أنّه يُشهد الله سبحانه وتعالى الّذي يثق أنّه أرسله ويحميه ويحمي عقله؛ لأنّ عقل الرّسول هو الّذي يدير كيفيّة أداء البلاغ عن الله جل جلاله.

﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾: فهو عليه السلام يرفض أن يقول عن أصنامهم بأنّها آلهةٌ، فإذاً أنتم تشهدون جميعاً بأنّني أكفر بهذه الآلهة، فاشهدوا أنّي بريءٌ ممّا تشركون.

(الآية ٥٥) - ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾:

﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾: فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه وتعالى.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: مطلب هودٍ عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً، وهم كثرةٌ طاغيةٌ متجبّرةٌ، فهو عليه السلام يتحدّاهم جميعاً، ويطلب منهم أن يعملوا كلّ مكرٍ وكلّ كيدٍ وأن يقتلوه لو استطاعوا، وهذا قمّة التّحدّي، فهو عليه السلام واثقٌ من حماية الله عزّ وجلّ له.

(الآية ٥٦) - ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾:

﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ﴾: يعلن هودٌ عليه السلام حقيقة التّوكّل.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾: فهو يتوكّل على الله سبحانه وتعالى الآخذ بناصية كلّ دابّةٍ، والنّاصية: هي مقدّمة الرّأس، فكلّ دابّةٍ تدبّ على الأرض لها حريّةٌ وحركةٌ، والله سبحانه وتعالى آخذٌ بناصيتها.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: نلحظ هنا أنّ هوداً عليه السلام قال في بداية الآية: ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ﴾، وبآخرها قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ لأنّ القول من عند الله سبحانه وتعالى، هم كانوا قادحين ومتذمّرين ولم يكونوا يقبلون بربوبيّة الله فقال لهم: ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ﴾، أمّا في نهاية الآية: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، هنا

يصف أنّ الإله الواحد ﷻ له مطلق العدالة ومنتهى القدرة والقهر والسّيطرة، ولا شيء يفلت من قدرته ﷻ، فقدرة الله ﷻ لا متناهية وهو لا يستعمل قهره في ظلمٍ.

(الآية ٥٧) - ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أصلها في اللّغة: تتولّوا، عندما تأتي تاءان متتاليتان يُقتصر على تاءٍ واحدةٍ.

﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾: فقد أبلغتكم المنهج الّذي أُرسلت به إليكم، ولا عذر لكم عندي؛ لأنّ الله ﷻ لا يعذّب قوماً وهم غافلون، لذلك أرسلني إليكم.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: والاستخلاف أن يوجد قومٌ خلفاء لقومٍ يأتون بعدهم.

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾: عندما لا يؤمن قومٌ فهم لا يضرّون الله ﷻ، كما جاء في الحديث القدسيّ: «**يا عبادي، إنّكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»[1]، فالله ﷻ رقيبٌ؛ لأنّه

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

قيّومٌ قائمٌ على أمور كونه كلّها، بعض الفلاسفة قالوا: إنّ الله ﷻ خلق الكون ونواميس الكون، ثمّ تركها تقوم بعملها، نقول لهؤلاء: لقد أخطأتم، فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر، فأين صفات القيّوميّة لله ﷻ؟ فهو القائم على كلّ نفسٍ بما كسبت، وهو القائل ﷻ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٥]، وسبحانه عندما يقول هذا فإنّه يطمئن العباد لينام وا ويرتاحوا؛ لأنّه ﷻ مُنزّهٌ عن النّوم والغفلة، بل هو قيّومٌ والحفظ والرّعاية والعناية منه ﷻ، وهذا ما يؤمن به هودٌ عليه السلام.

(الآية ٥٨) - ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: هناك آمرٌ وأمرٌ، وبمجرّد صدور الأمر من الآمر سبحانه يكون التّنفيذ؛ لأنّه ﷻ يأمر من لا قدرة له على رفض الأمر، وقد تحقّق هذا العذاب بطريقةٍ خاصّةٍ ودقيقةٍ تتناسب في دقّتها مع عظمة الله تعالى، فتأتي ريحٌ صرصرٌ، قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقّة]، وما دام العذاب بقوّةٍ من خارج الإنسان بتوجيهٍ من الله ﷻ فهو عمّ كلّ المكذّبين لسيّدنا هودٍ عليه السلام، لكن يُفترض حسب الّذين يتفلسفون أن يعمّ المصدّقين والمكذّبين، لكنّها قدرة التّقدير لا قوّة التّدمير، تقديرٌ إلهيٌّ، كالحجارة الّتي رمتها الطّير الأبابيل على أبرهة الحبشيّ وجنوده مع نجاة قريش، وليس كما قال بعضهم: بأنّه الطّاعون.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: فلا تقل: كيف نجوا من

العذاب الجامع العامّ؟ فقد قال ﷻ: ﴿بِرَحْمَةٍ﴾؛ لأنّ الرّحمة هي ألّا يمسّ الإنسان الضّرّ.

﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: النّجاة الأولى من العذاب الجامع، وهو الرّيح الصّرصر، وهنا نجاةٌ من عذاب الآخرة الغليظ، فعذاب الدّنيا مع قسوته إلّا أنّه موقوتٌ بعمر الدّنيا.

(الآية ٥٩) - ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾:

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾: إشارةٌ إلى المكان الّذي عاش فيه قوم عاد؛ لأنّ الإشارة هنا لمؤنّث (تلك)؛ أي الدّيار، والمتكلّم هو الله ﷻ، وهكذا فصل ﷻ بين عادٍ المكان وعادٍ المكين؛ أي قوم عاد، والدّيار لم تجحد بآيات الله ﷻ ولذلك جاء بعدها قول الحقّ:

﴿جَحَدُوا﴾: الجحود: هو النّكران مع قوّة الحجّة والبرهان.

﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: الآيات هي الأمور العجيبة اللّافتة للنّظر بشكلٍ يؤدّي إلى الإيمان، قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران]، من الآيات ما يدلّ على قمّة العقيدة وهو الإيمان بواجب الوجود، الله الرّبّ الخالق الحكيم القادر ﷻ، كآيات الشّمس واللّيل والقمر والنّهار... إلى آخر تلك الآيات، فقوم عادٍ جحدوا بالآيات كلّها وبالإيمان وبتصديق الرّسول، وتركوا منهج الله ﷻ، لذلك يقول الله ﷻ:

﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾: لم يقل: وعصوا رسوله، وقد أُرسل هوداً عليه السلام إليهم، فالرّسول يمثّل الرّسل كلّهم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: من الآية ٨١]، عندما نقول: رسول، فالرّسول هو النّبيّ محمّد ﷺ، والرّسل كلّهم آمنوا برسول الله ﷺ، وعلينا أن نصدّق أخبار الرّسل عليهم السلام كلّها، فهؤلاء عصَوا الرّسل.

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: أي أنّ هناك مُتَّبِعاً ومُتَّبَعاً، الجبّار العنيد وهو الجبّار الطّاغي، والقسم الثّاني هم الأناس الّذين اتّبعوهم، والله سبحانه وتعالى يُفرّق بين هؤلاء وبين هؤلاء، فهناك من ضلّ في ذاته، وهناك مُضلَّل من غيره.

(الآية ٦٠) - ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾: الزّمان بالنّسبة للخلق ثلاثة أقسامٍ، الحياة الدّنيا هو الزّمن الأوّل، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم السّاعة زمنٌ ثانٍ هو البرزخ، والزّمن الثّالث عند البعث والقيام من القبور للحساب، الحياة الأولى فيها العمل، كما قال سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه: "اليوم عملٌ ولا حساب وغداً حسابٌ ولا عمل"، أمّا حياة البرزخ ففيها عرضٌ للجزاء، والحياة الآخرة إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النّار، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة]، هذه هي الأزمنة الثّلاثة، ويُعبّر القرآن الكريم عن هذا فيقول عن عذاب القبر مثلاً عند حديثه عن آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلنَّارُ

يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر]، النّار الّتي يُعرضون عليها لم تقم السّاعة بعد، وهذا دليلٌ على أنّ عرض الجزاء يكون في البرزخ، وقد قال النّبيّ ﷺ: «**إنّما القبر روضةٌ من رياض الجنّة، أو حفرةٌ من حفر النّار**»(١)، فالفاسق والكافر لا يُعذَّب بالنّار لكنّه يُعذَّب في القبر؛ لأنّه يُعرض على النّار، فيوجد زمنان، زمن العرض على النّار غدوّاً وعشيّاً، وزمن دخول النّار، وهذا يُثبت بشكلٍ قطعيٍّ عذاب البرزخ، فبمجرّد أنّه يرى موقعه من النّار ويرى نصيبه من العذاب فهذا جزءٌ من العذاب، ثمّ تقوم السّاعة ليأخذ نصيبه من العذاب، بالنّسبة لقوم عادٍ أذاقهم الله ﷻ العذاب في الدّنيا ثمّ يُدخلهم النّار يوم القيامة.

﴿أَلَا﴾: أداة تنبيهٍ، ليتنبّه السّامع لأهميّة ما سيتلقّى.

﴿إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾: جاء الحقّ ﷻ بحيثيّة هذه اللّعنات وهي أنّهم كفروا ربّهم.

(الآية ٦١) - ﴿*وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾﴾:

﴿*وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾: أتت قبيلة ثمود بعد عادٍ، ومساكنهم مشهورةٌ ما بين الحجاز والشّام، أرسل الله ﷻ إليهم صالحاً عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله لا شريك له، فسألوه أن يأتيهم بآيةٍ واقترحوا عليه أن يُخرج لهم من صخرةٍ

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب صفة القيامة والرّقائق والورع، باب ٢٦، الحديث رقم (٢٤٦٠).

صمّاء ناقةً عشراء، فأخذ صالحٌ عليه السلام عليهم العهود والمواثيق لئن أجابهم ليؤمننّ به ويتّبعونه، فتحرّكت الصّخرة بدعاء صالحٍ عليه السلام وانشقّت عن ناقةٍ يتحرّك جنينها بين جنبيها، وكانت النّاقة تشرب من البئر يوماً وتتركه لهم يوماً، وكانوا يشربون من حليبها ويملؤون ما يشاؤون من أوعيتهم، ولكن اتّفق تسعة نفرٍ على قتلها فعقروها؛ أي ذبحوها، فنزل بهم عقاب الله عزّ وجلّ بعد ثلاثة أيّام، وسيرد بعض تفاصيل القصّة في سورٍ أخرى، فالقصص القرآنيّ لقطاتٌ تأتي في كلّ سورةٍ لتخدم الوظيفة الإيمانيّة للسّورة.

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾: نلحظ هنا أنّ الحقّ سبحانه وتعالى يبيّن أنّه أرسل إلى قبيلة ثمود واحداً منهم، هو النّبيّ صالحٌ عليه السلام، فهو حريصٌ عليهم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾: ناداهم صالحٌ عليه السلام: يا قوم، يا مَن أنتسبُ إليكم وتنتسبون إليّ.

﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: نلحظ هنا أنّ دعوات الأنبياء كلّها تبدأ بالتّوحيد؛ لأنّه أساس الإيمان، والعبادة تقتضي تلقّي أوامر من الإله المعبود في كلّ حركةٍ من حركات الحياة.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾: الإنشاء: هو الإيجاد ابتداءً من غير واسطةٍ، يُقال: أنشأ؛ أي أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيءٍ آخر، لذلك لا نقول لمن اخترع: إنّه أنشأ؛ لأنّه استعان بأشياء كثيرةٍ موجودةٍ ليصل إلى اختراعه، لكنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي أنشأ من عدمٍ، والوجود من عدمٍ قسمان، قسمٌ يتمّ ببعض الموجودات، وقسمٌ من عدمٍ محضٍ، وهذا الأخير هو الإنشاء الّذي لا يقدر عليه إلّا الله جلّ جلاله.

﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: الله ﷻ يُنشئ الإنسان من التقاء الزّوج والزّوجة، لكن إن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية نجد أنّ الله ﷻ خلق آدم عليه السلام من الأرض، والأرض مخلوقٌ من مخلوقات الله ﷻ، وسائل الزّوج وبويضة الزّوجة يتكوّنان من خلاصة الدّم، وخلاصة الدّم هي خلاصة الأغذية، وهي تأتي من الأرض، فسواءً تمّ الرّمز لآدم عليه السلام بإنشائه من الأرض أو إلى ذرّيّته من خلال الزّواج فكلّ شيءٍ مردّه إلى الأرض.

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾: حين ترى الألف والسّين والتّاء، فاعلم أنّها للطّلب، (استعمر)؛ أي طلب منكم عمارتها، وهذا يتطلّب أمرين اثنين: الأوّل: أن يُبقوا الأمر الصّالح على صلاحه، مثال: الله ﷻ خلق الهواء صالحاً فعليهم المحافظة على صلاحه وعدم تلويثه، الثّاني: أن يزيدوا هذا الصّلاح صلاحاً.

وعندنا كلمة (استعمار) هي تخريبٌ لا تعميرٌ، فالدّول الاستعماريّة ادّعوا أنّهم يرغبون في عمارة الأرض، ولكنّهم في حقيقة الأمر كانوا يُخرّبون الأرض، فلذلك كان يجب أن تسمّى دول الاستخراب وليس دول الاستعمار.

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾: إنّ استغفار الإنسان يكون عن ذنوبٍ لا تتعلّق بحقوق النّاس، فإن كان هناك حقوقٌ للنّاس فعليه إعادتها.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾: الله ﷻ يجيب دعوة المستغفر والتّائب.

(الآية ٦٢) - ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾:

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾: كانوا ينظرون إلى صالحٍ عليه السلام

بتقديرٍ قبل أن يدعو لعبادة الله الواحد الأحد، فهم يأملون فيه الخير ففيه خِصالٌ تُبشّر بأنّ له مستقبلاً صالحاً، لكن ما إن دعاهم إلى عبادة الله أعلنوا أنّه بتلك الدّعوة إنّما يُفسد رجاءهم فيه، وما كانوا يأملون منه.

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: أوضح لهم صالحٌ عليه السلام أنّ اتّخاذ الأصنام آلهةً تُعبَد من دون الله ﷻ أمرٌ لا يصحّ؛ لأنّ العبادة تقتضي أوامر ونواهي، أمّا الأصنام الّتي تعبدونها فليس لها منهجٌ.

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: هم في شكٍّ من دعوة صالحٍ.

(الآية ٦٣) - ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾:

ارتضاهم صالحٌ عليه السلام حكماً فقال: أخبروني إن كنت على بيّنةٍ ويقينٍ من ربّي بأنّه أرسلني وأيّدني وآتاني منه رحمةً، والمراد بها هنا النّبوّة، فمن ينصرني من الله ﷻ إن عصيته؟

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: الخسارة: أن يقلّ رأس المال، فهل التّخسير واقعٌ منه عليهم؟ أم واقعٌ منهم عليه؟ إنّ ثراء الأسلوب القرآنيّ يوضّح لنا هذه المعاني كلّها، فإن أطاعهم صالحٌ عليه السلام وعصى ربّه ﷻ فهو قد زاد في خسارته وخسرانهم؛ لأنّهم لا يهتدون، ويريدون له أن يضلّ ويتّبع ما يعبدون من دون الله ﷻ، فالتّخسير إمّا أن يكون واقعاً عليهم من صالحٍ عليه السلام، وإمّا أن يكون واقعاً منهم على صالحٍ عليه السلام إذا منعوه من عبادة الله ﷻ.

(الآية ٦٤) - ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾:

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾: خرجت النّاقة كما طلبوا، وحين نسمع شيئاً مُضافاً إلى الله ﷻ فلنعلم أنّ له عظمةً بعظمة المُضاف إليه، كقولك: بيت الله، وقد قال لهم صالحٌ عليه السلام: هذه ناقة الله ﷻ، لكن قومه لم يستجيبوا له.

﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾: وعظهم وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ﷻ.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾: أي عذابٌ مباشرٌ ليس فيه إمهالٌ.

(الآية ٦٥) - ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾:

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أصابوها إصابةً قاتلةً؛ أي نحروها.

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾: جلسوا في منازلهم ثلاثة أيّامٍ ثمّ جاءهم العذاب، قد يسأل بعض النّاس: لم الإمهال ثلاثة أيّامٍ؟ الجواب: إنّ العذاب إذا جاء فالألم يكون حسّيّاً، لكن إن جعلك تنتظر ثلاثة أيّامٍ فأنت في ألمٍ نفسيٍّ حتّى يأتي، فيكون العذاب أشدّ، كلّ دقيقةٍ تمرّ عليهم في هذه الأيّام الثّلاثة يزداد ألمهم وخوفهم من قُرب الوعيد، إذ يقولون: ربّما كان صالحٌ صادقاً.

﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾: الحقّ ﷻ هو الّذي يَعِد، فهو قادرٌ على التّنفيذ، لا تقوم قوّةٌ أمامه، لذلك فهو وعدٌ صادقٌ غير مكذوب.

(الآية ٦٦) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾: حين شاء الحقّ ﷻ أن يُنزّل العذاب على ثمود بعد مضي ثلاثة أيّامٍ نجّا صالحاً عليه السلام والّذين آمنوا معه من الهلاك، وحفظهم برحمةٍ منه ﷻ.

﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ﴾: من فضيحة هذا اليوم الّذي حاق بثمود.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾: هذا خطابٌ للنّبيّ ﷺ وتسليةٌ له وتقويةٌ لعزمه، فربّك يا محمّدٌ هو القويّ العزيز المقتدر، لا يغلبه أحدٌ ولا يُعجزه شيءٌ، وفي هذا إنذارٌ لكفّار مكّة ومشركي العرب.

(الآية ٦٧) - ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾:

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾: العذاب الّذي نزل على ثمود سمّاه الله ﷻ في هذه السّورة (الصّيحة)، وسمّاه في موضعٍ آخر (الطّاغية)، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقّة]، وسمّاه في موضعٍ آخر (صاعقة)، قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧﴾ [فصّلت]، وفي موضعٍ آخر سمّاه الرّجفة، قال ﷻ: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]، وكلٌّ من الصّاعقة والصّيحة والرّجفة تؤدّي معنى الحدث الّذي جاءهم، ولا يمكن أن ينفكّوا منه، وفي قوله ﷻ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾، الصّيحة مؤنّث، لكن اختفت تاء التّأنيث من الفعل؛ لنعلم أنّه لا يصحّ أن نفهم أنّها صيحةٌ واحدةٌ، فتاء التّأنيث تُعبّر عن صيحةٍ لمرّةٍ واحدةٍ، أمّا إذا تكرّرت وصارت صيحات متتالية فتُقرئ: أخذ.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: أي مُلقَون على ركبهم وعلى جباههم بلا حركةٍ.

(الآية ٦٨) - ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ﴾: مادّة غَنِيَ غِنىً غَناء كلّها متساويةٌ، وهو وجود شيءٍ يُغني عن شيءٍ، فالغنى هو وجود مالٍ يُغنيك عن غيرك، والمراد هنا أنّهم لم ينتفعوا بشيءٍ ممّا كان عندهم، يقول الحقّ ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: من الآية ٢٤]؛ أي كأنّها لم توجد من قبل.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ﴾: هذه حيثيّة العذاب الّذي نزل بهم، وعادةً تتعدّى كلمة (كفر) بالباء؛ أي كفروا بربّهم، لكنّ الله ﷻ قال هنا: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ﴾، والفارق كبيرٌ بين المعنيين، فمعنى: (كفروا ربّهم)؛ أي ستروا وجوده، أمّا (كفروا بربّهم) فهو اعترافٌ بوجود الله ﷻ

لكنّهم لم يؤمنوا به، فقوم ثمود ستروا وجود الله ﷻ نهائيّاً.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾: جملةٌ تُرعب القلب عندما يقولها القادر المقتدر الجبّار مالك المُلك ﷻ، بُعداً لثمود؛ أي أنّهم يستحقّون ما وقع عليهم من إهلاكٍ وطردٍ من رحمة الله ﷻ، ولن يعطف عليهم أحدٌ لضخامة ذنبهم.

(الآية ٦٩) - ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: رسل: جمع رسول، والرّسول هو المرسل من جهةٍ إلى جهةٍ، لكنّ المعنى الشّرعيّ للرّسول أن يكون مُرسَلاً من الله ﷻ إلى النّاس، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجّ]، فجبريل عليه السلام رسولٌ من الله ﷻ لتيسير التّلقّي عن الخالق ﷻ، فالإنسان لا يقدر أن يتلقّى من الحقّ ﷻ مباشرةً، والنّبيّ ﷺ هو رسولٌ بشريٌّ.

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: البشرى: هي الإخبار بشيءٍ يسرّ قبل أوانه، عكس الإنذار الّذي يعني الإخبار بالشّيء المحزن قبل وقوعه.

﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾: من أدب الدّخول لأيّ مكانٍ أن نسلّم على أهل هذا المكان، يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النّور]، فديننا دين سلامٍ واطمئنانٍ وأمانٍ؛ فعند قولك: السّلام عليكم؛ أي أعطيتك أماناً واطمئناناً، لذلك أوّل كلمةٍ قالتها الملائكة عند دخولها: ﴿سَلَٰمًا﴾، فردّ

عليهم سيّدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾، فنلاحظ أنّ السّلام جاء على ألسنتهم بالنّصب، والرّدّ جاء بالرّفع، فقول الملائكة عليهم السلام يدلّ على فعلٍ متكرّرٍ، أمّا جواب سيّدنا إبراهيم عليه السلام بالرّفع يدلّ على الثّبات، فهو يريد أن يردّ بأفضل من قولهم: ﴿سَلَٰمًا﴾؛ لأنّ ﴿سَلَٰمٌ﴾ يوجد فيها ثباتٌ.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾: العجل: ولد البقر.

﴿حَنِيذٖ﴾: أي سمينٌ مشويٌّ على الحجارة، فعند شَي اللّحمة يؤتى بحجرٍ رقيقٍ ويُحمّى على النّار ويُشوى عليه اللّحم، وهذا يؤدّي إلى تفاعلٍ بين اللّحم والحجر فتكون هذه الطّريقة أفضل من الحديد أو الفحم وأنظف، وقال بعض المفسّرين: العجل الحنيذ؛ أي ينزل منه دهنٌ بعد أن يُشوى، وطبيعة سيّدنا إبراهيم عليه السلام أنّه يُحبّ الضّيوف ويكرمهم، ومن عادة الكرام أن يعجّلوا بإكرام الضّيف قبل أن يذكر ما يريد، وهنا علّمنا المولى سبحانه وتعالى كيف يُكرم الإنسان ضيوفه.

(الآية ٧٠) - ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾:

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾: حين رأى إبراهيم عليه السلام أنّ أيديهم لا تصل إلى الطّعام خاف منهم ونكرهم؛ أي استنكر أنّهم لم يأكلوا من طعامٍ قدّمه لهم.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾: عَلِمَ عليه السلام أنّهم ملائكةٌ من كلامهم، وقد تبيّن ذلك في موضعٍ آخر من القرآن الكريم: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ

فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ [الحجر].

واطمأنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام أنّ قومه لم يأتوا بفعلٍ يستحقّون عليه العذاب، قال سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٣﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٤﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٥﴾ [الذّاريات].

(الآية ٧١) - ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾﴾:

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾: قائمةٌ على خدمة الضّيوف.

﴿فَضَحِكَتۡ﴾: ضحكت وسُرَّت؛ لأنّها كانت قد توقّعت أن ينزل العذاب على قوم لوطٍ عليه السلام قبل مجيء الملائكة.

﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾: زادها الله سبحانه وتعالى سروراً، فقد بشّرتها الملائكة بإسحاق وهي عجوزٌ.

﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾: أي بعد إسحاق سيكون حفيدها يعقوب، وهذا امتنانٌ من الله عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السلام، فالإنسان يحبّ أن يكون له ابنٌ، ويحبّ أن يرى ابن ابنه، فهو يمثّل امتداداً له.

(الآية ٧٢) - ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾: تتعجّب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر

الإنجاب في هذا العمر، والشّيء العجيب هو الّذي يخالف نواميس الكون المعتادة، وخالق النّواميس ﷻ قادرٌ على أن يخرقها.

﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخٗاۖ﴾: البعل: هو الّذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه إلى أحدٍ، كذلك على الزّوج أن يقوم بأمر زوجته.

(الآية ٧٣) - ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾:

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾: القادر الأعلى ﷻ له طلاقة القدرة في أن يخرق النّاموس، ومن خرْق النّواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله ﷻ، فالمعجزات أمرٌ خارقٌ للعادة الكونيّة، فهي أمرٌ مستحيلٌ عادةً، ممكنٌ عقلاً، والقصّة الّتي حدثت مع سيّدنا إبراهيم عليه السلام تكرّرت في قصّة سيّدنا زكريّا عليه السلام.

﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾: رحمة الله ﷻ قد وسعت أهل بيت النّبوّة، والبركات هي الزّيادة؛ أي هبة الأبناء والأحفاد، وفي أوانٍ غير معتادٍ.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾: حميدٌ في اللّغة تأتي على معنيين: إمّا أن تكون بمعنى فاعل، كقولنا: الله رحيمٌ؛ أي أنّه راحمٌ لخلقه، وإمّا أن تكون بمعنى مفعول، كقولنا: قتيلٌ؛ أي مقتولٌ، وكلمة حميدٌ هنا تأتي بكِلا المعنيين.

﴿مَّجِيدٞ﴾: الله ﷻ هو المجيد الّذي يُعطي قبل أن يُسأل، والحقّ ﷻ أعطانا حتّى قبل أن نعرف كيف نسأل، لذلك هو حميدٌ مجيدٌ.

(الآية ٧٤) - ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤﴾:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾: عندما ذهب عنه الخوف.

﴿يُجَٰدِلُنَا﴾: الجدل: هو أن تأخذ حجّةً وبالمقابل تعطي حجّةً لتصل إلى الحقّ، والجدل يختلف عن المِراء، فالمِراء هو أن تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل، بينما الجدل هو نقاشٌ حتّى يتبيّن الحقّ، قال ﷻ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥].

﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾: بدأ سيّدنا إبراهيم عليه السلام يجادل في عقاب قوم لوطٍ عليه السلام ليس ردّاً لأمر الله ﷻ، ولكنّه يطلب الإمهال عسى أن يؤمنوا.

(الآية ٧٥) - ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾: العلّة في جدال إبراهيم أنّه حليمٌ لا يعجل بالعقوبة.

﴿أَوَّٰهٌ﴾: التّأوّه: هو رقّةٌ في القلب، إن كان التّأوّه من الأعلى فهذا يعني الخوف من أن يكون لم يؤدّ حقّ الله ﷻ، وإن كان التّأوّه للأقلّ فهو رحمةٌ ورأفةٌ بالآخرين، فقد طلب سيّدنا إبراهيم عليه السلام تأجيل العذاب لقوم لوطٍ لعلّهم يؤمنون.

﴿مُّنِيبٌ﴾: أي يرجع إلى الحقّ في قضاياه.

(الآية ٧٦) - ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾:

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ﴾: سأل سيّدنا إبراهيم عليه السلام الملائكة: كيف

تهلكون أهل هذه القرية وفيهم لوطٌ النّبيّ، وفيهم من آمن؟ فردّت عليه الملائكة كما قال ﷻ في سورةٍ أخرى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٣٢﴾ [العنكبوت: من الآية ٣٢].

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: فمسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوطٍ أمرٌ محسومٌ، وهؤلاء الملائكة جاؤوا لينفّذوا لا ليهدّدوا.

﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ﴾: أي لا يقدر أحدٌ على ردّ عذاب الله تبارك وتعالى.

﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: أي غير مصروفٍ عنهم ولا مدفوعٍ.

(الآية ٧٧) - ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: شعر لوطٌ عليه السلام بالاستياء، وضاق بهؤلاء الشّبّان الّذين جاؤوا إليه، وهم ملائكةٌ لكنّه لم يكن يعلم، فقد جاؤوه بهيئة شُبّانٍ حسانٍ فضاق بهم ذرعاً، والذّرع مأخوذةٌ من الذّراع الّتي فيها الكفّ والأصابع الّتي ندفع بها الأشياء، لذلك عبارة: ضُقت به ذرعاً؛ أي أنّ يدي لم تطله، وهو أمرٌ فوق قوّتي وطاقتي، وسيّدنا لوطٌ عليه السلام ضاق بهم ذرعاً؛ لأنّه يعلم أنّ قومه قوم الفاحشة الكبيرة، لذلك يتبيّن لنا هنا ما الّذي يسيء لوطاً عليه السلام بمجيء شبّانٍ حسانٍ.

﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾: يومٌ شديدٌ عصيبٌ، من عصبصب وتعني الضّيّق.

(الآية ٧٨) - ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾:

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾: كانت زوجة لوطٍ تعلم آفة قومه لكنّها كانت موافقةً عليها، يُقال: إنّها تنبّهت لمجيء الرّجال، وهي لم تعلم أنّهم ملائكة، فصعدت إلى سطح المنزل وصفّقت لعلّ القوم ينتبهون لها، فلم يلتفت إليها أحدٌ، فأشعلت ناراً فانتبه لها القوم، فأشارت لهم عن مجيء ضيوفٍ إلى سيّدنا لوطٍ عليه السلام، فجاؤوا يهرعون؛ أي يُسرعون إليه في تدافقٍ، والإنسان إذا لم يكن قد مرِن على الشّرّ وله به دُربةٌ فإنّه يكون متردّداً، أمّا هؤلاء فقد جاؤوه يُهرعون؛ أي أنّ لهم دُربةً على الشّرّ والفاحشة بجرأةٍ، وكلمة: ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ يأتي بعدها فاعلٌ وليس نائب فاعلٍ، نبني الفعل للمجهول، ولكن ما يأتي بعده يكون فاعلاً، وهذا من إعجاز البيان القرآنيّ.

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾: هذه المسألة كانت محبّبةً عندهم، فلا حياء يمنعهم عنها.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾: فكّر لوطٌ عليه السلام أن يصرفهم من جنس اندفاعهم، فبيّن أنّ المرأة مخلوقةٌ لتكون مكمّلةً للرّجل، والرّجل مكمّلٌ للمرأة، وأخبرهم أنّ باستطاعتهم أن يتزوّجوا من بناته، وكان في أيّام لوطٍ عليه السلام لا يُمنع أن يزوّج المؤمن ابنته لغير المؤمن.

كان لوطٌ عليه السلام يقصد بنات المؤمنين به، وليس بناته من صلبه فقط، فقد قيل: إنّ لوطاً عليه السلام كان عنده بنتان، لذلك المقصود بنات المؤمنين به؛ أي تزوّجوا بالشّكل الطّبيعيّ.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾: لعلّهم يرجعون عن الفواحش ويحفظون كرامته أمام ضيوفه، وكلمة ضيف جاءت هنا مفردةً، وهي تطلق أيضاً على الجمع وعلى المثنّى، وتصلح للدّلالة على المذكّر وعلى المؤنّث، وفي آيةٍ أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [الذّاريات].

﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾: ألا يوجد بينكم رجلٌ له عقلٌ ومروءةٌ وكرامةٌ يمنع هذه الفاحشة الخطيرة؟!

(الآية ٧٩) - ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾:

هذه الآية تبيّن ردّ المتدافعين من قوم لوطٍ عليه السلام طلباً للفحشاء، فقد أعرضوا عن قبول النّصح بالزّواج من بنات المؤمنين بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوطٍ عليه السلام الّذين كانوا عنده.

(الآية ٨٠) - ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾:

﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾: لو: للتّمنّي؛ أي رجاء أن يكون له قوّةٌ يستطيع أن يدفع بها هؤلاء، ولا بدّ من وجود شرطٍ، كقولنا: لو أنّ زيداً عندك لجئتك، لكنّنا نجد هنا شرطاً ولا يوجد جوابٌ للشّرط.

﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾: الشّديد هو المتجمّع تجمّعاً يصعب فصله،

قال لوطٌ عليه السلام ذلك؛ لأنّه لم يكن في مَنعةٍ من قومه أهل سدوم، وقد قال النّبيّ ﷺ: «**يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديدٍ**»[1]، فهو يأوي إلى الله سبحانه وتعالى، لكنّ القضيّة ليست سهلةً، فقد قال هذا القول وهو يعلم أنّه لا يوجد سندٌ أو ركنٌ شديدٌ إلّا الحقّ سبحانه وتعالى.

(الآية ٨١) - ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾:

﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ﴾: بيّنت الملائكة مَن هم، فعلم لوطٌ عليه السلام أنّهم رسلٌ من عند الله سبحانه وتعالى، وأنّ الأمر منتهٍ.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي اخرج بأهلك في جزءٍ من اللّيل، والمقصود أن يترك الرّبع الأوّل من اللّيل وربعه الآخر، ويسير في نصف اللّيل الّذي بعد الرّبع الأوّل وينتهي عند ربع اللّيل الأخير.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: معنى الالتفات باللّغة العربيّة: الانصراف عن الشّيء الموجود أمامك؛ أي لا تنظروا إلى ما سيحدث، ونعلم أنّ لوطاً عليه السلام سيصحب المؤمنين معه من ديارهم وأموالهم وما ألفوه من حياةٍ، لذلك تنبّههم الملائكة ألّا تتّجه قلوبهم إلى ما تركوه، وعليهم أن يقوا أنفسهم، وسيعوّضهم الله سبحانه وتعالى خيراً ممّا فاتهم، وقد يكون أيضاً المقصود الالتفات الحسّيّ.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّفسير، باب سورة يوسف، الحديث رقم (٤٤١٧).

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾: توصي الملائكة لوطاً عليه السلام ألّا يصحب امرأته معه، فقد خانته بموالاتها للقوم المفسدين، وأفشت الأسرار، فعليه أن يتركها مع الّذين يصيبهم العذاب.

﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾: حدّدوا الصّبح لإهلاكهم؛ لأنّه وقت الهدوء فيكون العذاب أشدّ نكالاً.

﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾: الإنذار كان قريباً جدّاً.

(الآية ٨٢) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: جعل الله سبحانه وتعالى عاليها سافلها فقد قيل: إنّ سيّدنا جبريل عليه السلام قلب مدينتهم بجناحه بشكلٍ كاملٍ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣﴾ [النّجم]، والمؤتفكة: من الإفك؛ أي الكذب المتعمّد، فالإفك هو قلب الحقائق، وهم قد قلبوا الفطرة بهذه الفاحشة، وكذلك المؤتفكة هي القرى الّتي جُعل عاليها سافلها، فانقلبت بمن فيها.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾: من طينٍ متحجّر، ويقول الحقّ سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾ [الذّاريات]، كلمة الحجارة تعطي إحساساً بالصّلابة، أمّا كلمة طين فتعطي إحساساً باللّيونة، لكنّ الطّين الّذي نزل متحجّراً بأمرٍ من الله سبحانه وتعالى نزل منضوداً؛ أي يتتابع في نظامٍ.

(الآية ٨٣) - ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ﴾: أي مُعلَّمةً، وكأنّ كلّ حجرٍ قد تمّ توجيهه إلى صاحبه، مثل الصّواريخ الموجّهة، فكلّ حجرٍ يعرف على مَن سوف ينزل بالعذاب بالتّحديد.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾: الخطاب هنا للنّبيّ ﷺ، والظّالمين هم مشركو مكّة، والّذين يُعارضون النّبيّ ﷺ، فالقصص القرآنيّ نزل لتسلية وتثبيت النّبيّ ﷺ، قال ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: من الآية ١٢٠]، وأراد الحقّ ﷻ هنا أن يُذكّر هؤلاء الظّالمين من مشركي قريش بأنّ عذاب الله ﷻ حين يجيء لا يمكن أن يقوم أمامه قائمٌ يمنعه، فتنبّهوا جيداً، فأنتم مُعرَّضون لأن يُنزِل الله ﷻ بكم العذاب كما أنزله بهذه القرى، وهي غير بعيدةٍ عنكم، فأنتم تمرّون عليها في رحلة الشّتاء والصّيف، فهي قرىً تقع على هذه الطّريق المسلوكة، فمن الواجب أن تأخذوا لقطةً وعبرةً في كلّ مرورٍ حتّى لا تقعوا فيما وقعوا به.

وهنا نجد الّذين لا يملكون مَلَكة اللّغة العربيّة والمستشرقين يحاولون نقض القرآن الكريم، فيقولون: لماذا لم يقل: (وما هي من الظّالمين ببعيدة)؛ لأنّه يتحدّث عن القرى، وهي مؤنّثة، فلماذا جاءت ﴿بِبَعِيدٍ﴾ مذكّرة؟ والجواب لهؤلاء: إن جاءت فعيلٌ بمعنى مفعول يستوي المذكّر والمؤنّث، ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً قوله ﷻ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التّحريم:

من الآية ٤]، وقول الحقّ ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: من الآية ٥٦]، فعدم درايتهم باللّغة العربيّة هو الّذي جعلهم يخطئون مثل هذا الخطأ.

(الآية ٨٤) - ﴿*وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾:

﴿*وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: مدين هو اسمٌ لابن أحد الأنبياء حسب الأقوال، لم يكن هذا الابن موجوداً عندما بُعث شُعيبٌ عليه السلام، لكنّ القبيلة الّتي تناسلت منه سُمّيت باسمه، وكذلك القرية الّتي أقامت فيها هذه القبيلة سُمّيت أيضاً باسمه، فأُرسل شُعيبٌ عليه السلام إلى قرية مدين.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: بدأ شُعيبٌ عليه السلام رسالته مع قومه، فبدأ بالدّعوة إلى قمّة العقيدة، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا هو القدر المشترك في كلّ الرّسالات السّماويّة، قال ﷻ: ﴿*شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، فقمّة العقيدة الإيمانيّة عبادة الله الواحد الأحد، لا إله غيره؛ لأنّه يوجّه الأوامر التّكليفيّة للإنسان: افعل هذا ولا تفعل هذا، هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، والله تعالى لا يوجّه هذه الأوامر إلّا لمن آمن به إلهاً واحداً، أمّا الّذي لا يؤمن فالله ﷻ لا يخاطبه بالتّكاليف، لذلك نجد كلّ حيثيّة حكمٍ تكليفيٍّ في القرآن الكريم مصدرها كلمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، صياماً أو حجّاً أو

قصاصاً... إلخ.

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾: كلّ رسولٍ يأتي ليُعالج عيباً محدّداً في المكان الّذي أرسله الله ﷻ إليه، وعندما قرأ العلماء هذا القول الكريم بيّنوا أنّ المُراد ليس نقص المكيل والموزون؛ لأنّه لو شاء الله ﷻ لقال: (لا تنقصوا المكيل أو الموزون)، لكنّ القول هنا يُقصد به أن يأخذ كلّ ذي حقٍّ حقّه؛ أي يأخذ المشتري حقّه من السّلعة، ويأخذ البائع حقّه من الرّبح، فهذا القول الكريم لله ﷻ يشمل البائع والمشتري معاً، والوزن كما نعلم هو تعديل شيءٍ بشيءٍ، فالأمر يحتاج إلى ميزانٍ، وإن كان تعديل شيءٍ بشيءٍ في الكم فهذا يحتاج إلى كيلٍ، وبعض الأشياء تُباع بالحجم، وهذا يعني قياس الطّول والعرض والارتفاع واستخراج النّاتج بعمليّة ضرب كلٍّ منهم في الآخر، فالأمر المشهور هو الكيل والميزان، والمهمّ هو أن يأخذ كلّ إنسانٍ حقّه، وألّا نؤجّل أجر العامل حتّى يُنجز العمل، وأن يتناسب الأجر مع الجهد، ولو أكل بعض النّاس حقوق بعضهم الآخر لزهد من أُكِلت حقوقهم في العمل، وعندما نعطي الإنسان أقلّ ممّا يستحقّ أو نأخذ من جهده أكثر ممّا ندفع له ستجده يتباطئ في العمل ولا يُنجز المطلوب على تمام الدّقّة، فيحدث الخلل والفساد، بينما إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه يزيد من جودة الأداء في العمل والإنتاج، لذلك قال النّبيّ ﷺ: «**أعط الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه**»[1].

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الرّهون، باب أجر الأجراء، الحديث رقم (٢٤٤٣).

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾: عرفنا أنّ شُعيباً عليه السلام قال لأهل مدين: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾؛ أي لا تأكلوا مال بعضكم؛ لأنّ من يبيع عنده سلعةٌ، ومن يشتري إنّما يملك نقوداً، فاكتفوا بالخير الّذي عندكم، وليأخذ كلّ واحدٍ منكم حقّه.

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾: بمعنى أنّ المُعَذَّب لا يستطيع أن يفلت منه أبداً، ففي الدّنيا بإمكانك أن تحتال في النّجاة من العذاب ومن القانون، لكن في الآخرة لا مفرّ ولا منجى.

(الآية ٨٥) - ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾:

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾: وهكذا نعلم أنّ عدم الإنقاص في الكيل والميزان مطلوبٌ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبةٌ؛ لأنّهما أمرٌ واحدٌ، وفي موضعٍ آخر من القرآن الكريم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطفّفين].

﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: بالعدل.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾: البخس: هو أن تضرّ غيرك ضرراً بإنقاص حقّه، وهذا كلامٌ عامٌّ لا ينحصر بالميزان والمكيال، لكن يتعدّى إلى أن يأخذ الإنسان رشوةً لقضاء مصلحةٍ، أو يغتصب، أو يختلس المال العامّ أو الخاصّ.. كلّها أمورٌ تعني أخذ غير الحقّ بوسائل متعدّدةٍ.

﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾: تضمّ أشياء متعدّدةً، وكلمة أشياء مفردها شيءٌ،

ويقولون عن الشّيء: جنس الأجناس، فالثّمرة يُقال عنها: شيءٌ، وكلّ الثّمر يُقال عنه: شيءٌ.. وهكذا، والله ﷻ يوصينا ألّا يغرّنا أيّ شيءٍ سواء كان قليلاً أو كثيراً.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾: كلمة: عثاء، يعثو، عثى، كلّها تعني مزاولة الفساد؛ أي أن يعمد الإنسان إلى الصّالح في ذاته فيُفسده، فالمجتمع كلّه مأمورٌ بعدم مزاولة الفساد، ولو طبّق كلّ واحدٍ ذلك لأصبح المجتمع كلّه صالحاً، لكنّ الآفة أنّ بعض النّاس يكره أن يكون غيره مفسداً، لكنّه يسمح لنفسه أن يُفسد، ولا يريد أن يعترض عليه أحدٌ.

(الآية ٨٦) - ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾:

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: أي ما يبقى لكم من الأمر الحلال أفضل لكم؛ لأنّ من يأخذ غير حقّه يُخطئ ويزيل البركة عن ماله، فالغنيّ من غير الحلال يعيش في ضنك الدّنيا والهمّ والغمّ والأمراض، فكلّ ماله لا يستطيع أن يصدّ همومه؛ لأنّ الله ﷻ قد جرّأ عليه مصارف السّوء.

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾: إن كنتم مؤمنين بأنّ الله ﷻ رقيبٌ، وأنّه قيّومٌ، فإيّاك أن تأخذ حقّاً ليس لك؛ لأنّك لن تضرّ إلّا نفسك.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾: أي أنّ شُعيباً عليه السلام قد أوضح لأهل مدين أنّه لن يقف على رأس كلّ مفسدٍ حتّى يمنعه من الفساد، فكلّ إنسانٍ عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله ﷻ، فالقانون الإلهيّ

محيطٌ بأحوال النّاس بالعلن والخفاء.

(الآية ٨٧) - ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾: قالوا: أصلاتك؛ لأنّ الصّلاة هي عماد الدّين، وهنا يهزأ أهل مدين برسولهم شُعيب وبصلاته، مثلما فعل كفّار قريش تماماً مع الرّسول الكريم ﷺ، فشُعيبٌ عليه السلام كان كثير الصّلاة، والنّاس يظنّون أنّ الصّلاة مجرّد طقوسٍ، بل هي أكثر من ذلك، فهي تأمر وتنهى؛ لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٥]، لذلك عندما نجد من يُحافظ على صلاته نثق بأمانته، وموضوع الصّلاة مهمٌّ جدّاً، لذلك يقول نبيّنا ﷺ: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بُعداً**»(١)، فالصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالمقابل تأمر بالبرّ والخير، وهنا أراد أهل مدين التّهكّم بدعوة شُعيبٍ عليه السلام، وردّوا عليه ما دعاهم إليه من عدم إنقاص الكيل والميزان وبخس النّاس أشياءهم، ولم يتيقّنوا أنّ ما عند الله ﷻ خيرٌ وأبقى.

﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾: فهم يبيحون لأنفسهم الإفساد من خلال المال.

---

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب العين، أحاديث عبد الله بن العبّاس، الحديث رقم (١١٠٤٧).

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾: استمرارٌ في التّهكّم، فهم لا يريدون أن يعكّر صفوَهم أحدٌ، وسبب سخريتهم أنّه عليه السلام لم يوافقهم على عبادة غير الله عزّ وجلّ، وعلى انحرافهم وإنقاص الكيل والميزان وبخس النّاس أشياءهم.

(الآية ٨٨) - ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ﴾: هنا يعلن شُعيبٌ عليه السلام أنّه على يقينٍ من أنّ الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حُجّةً ومنهجاً، ورزقه الرّزق الحسن الّذي لا يحتاج معه إلى أحدٍ، وقد يكون المقصود بالرّزق الحسن النّبوّة.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾: أي أنّني أطبّق ما أدعوكم إليه على نفسي، فلا أنقص كيلاً ولا أُخسر ميزاناً ولا أبخس أحداً أشياءه، فهو لا ينهاهم عن أفعالٍ ويفعلها هو، بل يُنهي نفسه قبلهم، فهو أُسوةٌ سلوكيّةٌ؛ لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى هو الّذي أمر، فالأنبياء عليهم السلام قادة البشر سلوكيّاً وأخلاقيّاً، وقد قال سبحانه وتعالى عن نبيّنا صلى الله عليه وسلم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، فما أحوج الإصلاح إلى القدوات، فلا يمكن لأحدٍ أن يدّعي الإصلاح وهو مفسدٌ، وكلّ النّبوّات لا يرسلها الله سبحانه وتعالى إلّا حين يطمّ ويعمّ الفساد، والنّبيّ المرسَل

يجب أن يكون أسوةً بتطبيق المنهج، فلا يأمر أمراً وهو بنجوةٍ عنه، لذلك نجد النّبيّ ﷺ عندما كلّمه أسامة في امرأةٍ مخزوميّةٍ من عليّة القوم سرقت، قال: «**أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟!**»، ثمّ قام فاختطب ثمّ قال: «**إنّما أهلك الّذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله، لو أنّ فاطمة بنت محمّدٍ سرقت لقطعت يدها**»(١).

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾: فالغاية الأساسيّة للرّسالات السّماويّة هي الإصلاح، فالّذي يحصر الأديان بالعبادات من دون المعاملات فهو واهمٌ، فكلّ عبادةٍ ترتبط بغايةٍ، وترتبط بسلوكيّةٍ، وتؤدّي إلى ثمرةٍ.

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾: الأمر يحتاج إلى توفيقٍ من الله ﷻ، وهناك فرقٌ بين العمل وبين التّوفيق في العمل، فالجوارح قد تنشغل بالعمل، والنّيّة هي الّتي لها علاقةٌ بالتّوفيق، فإذا لم تكن خالصةً لوجه الله ﷻ عندئذٍ لا يأتي التّوفيق منه ﷻ، أمّا إن أقبلت على العمل وفي نيّتك أن يوفّقك الله ﷻ لتؤدّي هذا العمل بإخلاصٍ، فستُنجز العمل بإتقانٍ بإذن الله ﷻ.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾: لا يمكن للإنسان أن يوفّق إلّا إذا توكّل على الله ﷻ وحده، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأنبياء، باب: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبٗا ٩﴾، الحديث رقم (٣٢٨٨).

لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطّلاق: من الآية ٣].

﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: إليه أرجع، ومرجعنا جميعاً إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ.

(الآية ٨٩) - ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ﴾: يقول لهم شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أتمنّى ألّا تحملكم عداوتكم لي على أن تجرموا جُرماً يكون سبباً في أن يُنزِل الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكم عقاباً كما أصاب القوم الّذين سبقوكم، وخالفوا رسلهم فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم العذاب كالغرق والرّجفة والصّيحة والصّاعقة، فنصحهم حرصاً منه عليهم على الرّغم من علمه بأنّهم يكنّون له العداء بسبب دعوته لهم لترك ما هم عليه من إثمٍ.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾: سبق أن عذّب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المخالفين من الأمم السّابقة، فذكّرهم شُعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأقرب من عُذِّبوا زماناً ومكاناً، وهم قوم لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(الآية ٩٠) - ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ﴾: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يغلق باب التّوبة أمام العصاة المصرّين، يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على**

بعيره وقد أضلّه في أرض فلاةٍ»[1]، والحقّ ﷻ لا يردّ مَن قَصَد بابه ما دام يستغفر عن الذّنوب الماضية، ويعزم ألّا يعود إلى ارتكابها مرّةً أخرى.

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾: مغفرته ورحمته يمنعان العذاب.

﴿وَدُودٌ﴾: من الودّ، وهو الحبّ، والحبّ يقتضي العطف على قدر حاجة المعطوف عليه.

(الآية ٩١) - ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾:

لم يكتفِ أهل مدين بإعلان كفرهم، بل هدّدوا شُعيباً عليه السلام، فظنّوا أنّهم قادرين على الفتك به.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾: تحجّجوا بحُجّةٍ واهيةٍ، وهي أنّ رهطه؛ أي أهله الّذين معه، والرّهط: هم الجماعة الّذين تتراوح أعدادهم بين الثّلاثة والعشرة أفراد، فقالوا: هؤلاء الّذين معه سيغضبون للضّرر الّذي سيصيبه، وتناسَوا أنّ الّذي أرسل شُعيباً عليه السلام لا بدّ أن يحميه، وجعلوا معزّة خلقه أهمّ من معزّة الله ﷻ.

(الآية ٩٢) - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾: يتساءل شُعيبٌ عليه السلام باستنكارٍ لقولهم: أغلّبتم خوفكم من رهطي على خوفكم من الله ﷻ؟ ولم

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الدّعوات، باب التّوبة، الحديث رقم (٥٩٥٠).

يأبه عليه السلام لاعتزازهم برهطه أمام اعتزازه بربّه جل جلاله؛ لأنّه يعلم أنّ العزّة لله عز وجل أوّلاً وأخيراً.

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾: هم لم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرّهط، بل طرحوا التّفكير في الإيمان بالله عز وجل وراء ظهورهم، ظهريّاً: المنسيّ والمتروك وراء الظّهر، فعندما تقول: إنّك طرحت فلاناً وراء ظهرك؛ أي جعلته بعيداً عن الصّورة وعن الأحداث، ولا تحسب له حساباً.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: أي أنّ ما تفعلونه كلّه محسوبٌ عليكم، والحقّ سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافيةٌ من أمركم، فهو محيطٌ بكم وبأعمالكم كلّها.

(الآية ٩٣) - ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾:

افعلوا ما في مُكنتكم وسأعمل ما في مُكنتي، ولست وحدي بل معي ربّي، ولن تتسامى قوّتكم الحادثة على قدرة الله عز وجل المُطلقة، ومهما فعلتم لمُعارضة هذا الإصلاح الّذي أدعوكم إليه فلن يخذلني الّذي أرسلني جل جلاله، وما دمتم تريدون الوقوف موقف الأمم السّابقة الّتي تصدّت للرّسالات السّماويّة فسيهزمكم الله عز وجل، وسوف يبيّن المستقبل من منّا على الحقّ ومن منّا على الضّلال، ولمن ستكون الغلبة والنّصر، ومَن الّذي سيأتيه الخزي ويشعر بالاحتقار والهوان ويُعاني من الفضيحة أمام الخلق.

(الآية ٩٤) - ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: لم يأت ﷻ هنا بالفاء (فلمّا)، بل قال ﷻ: ﴿وَلَمَّا﴾، فالفاء تأتي للتّعقيب، وعندما تحدّث ﷻ عن قوم لوطٍ عليه السلام قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾؛ أي جاءهم العذاب بدون فاصلٍ زمنيٍّ، أمّا عند حديثه عن عذاب قوم شعيبٍ عليه السلام قال الحقّ ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، فقد جاءهم العذاب بعد فترةٍ.

وكلّ أمرٍ يقتضي آمراً، ويقتضي مأموراً، ومأموراً به، والآمر هو الله تعالى القادر على إنفاذ ما يأمر به، ولا يجرؤ مأمورٌ على مخالفة ما يأمر به الله ﷻ، فالكون كلّه يأتمر بأمر خالقه، فحين يخبرنا الحقّ ﷻ أنّ العذاب قد جاء قوماً، فمعنى ذلك أنّ الأمر قد صدر ولن يتخلّف العذاب عن المجيء ولو بعد فترةٍ، قال ﷻ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾ [الكهف]، فالقضيّة الكونيّة من الله ﷻ لا تتخلّف عن مشيئته ﷻ، أمّا الحكم التّشريعيّ من الله ﷻ فيشقى من يُخالفه ويسعد من يطبّقه.

﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾: من عظمة التّوجيه الإلهيّ أنّ العذاب كان ينتقي القوم الكافرين فقط، ولا يصيب الّذين آمنوا، ولا يقدر

على ذلك إلّا إلهٌ قادرٌ مقتدرٌ يصرّف الأمور كما يشاء.

كلمة ﴿نَجَّيْنَا﴾ من النّجاة؛ أي يوجد بنجوةٍ، والنّجوة هي المكان المرتفع، وقد أنجى الله ﷻ شُعيباً والّذين آمنوا معه من العذاب.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: الرّحمة ألّا يصيبك شيءٌ.

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾: سمّى الحقّ ﷻ هنا العذاب بالصّيحة، وفي سورة (الأعراف) سمّى العذاب الّذي لحق بهم بـ(الرّجفة) فقال جلّ وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الأعراف]، والعذاب الإلهيّ متعدّدٌ، قال ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت].

﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ﴾: لم يقل: (في دارهم)؛ لأنّ بعضهم قد يكون خارج بيته، فالدّيار تختلف عن الدّار، الدّار؛ أي في البيت، والدّيار؛ أي في البلد.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي الملقَون على بطونهم بلا حِراك.

(الآية ٩٥) - ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾:

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۗ﴾: أي كأنّهم لم يقيموا ولم يستغنوا بهذا المكان عن أيّ مكانٍ آخر.

﴿أَلَا﴾: أداة استفتاحٍ ليلتفت السّامع ويُنصت.

﴿بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾: هذا ليس دعاءً على أهل مدين بالبُعد؛ لأنّهم قد هلكوا بالفعل، فكلمة (البعد) يُراد منها الفراق، وهو بينونةٌ قد تكون إلى لقاءٍ مظنونٍ، أمّا إذا كانت بينونةٌ متيقّنةٌ، كما بعدت ثمود، فتدلّ على أنّه بُعدٌ لا لقاء بعده إلى يوم القيامة، وهنا خصّ الحقّ ﷻ ثمود بالذّكر؛ لأنّهم عُذِّبوا بالصّيحة أيضاً، فاتّفقوا بطريقة العذاب.

(الآية ٩٦) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: ينتقل السّياق القرآنيّ إلى موسى عليه السلام شيخ أنبياء بني إسرائيل، وهو أكثر الأنبياء ذكراً في كتاب الله ﷻ.

﴿بِآيَاتِنَا﴾: آياتٌ تدلّ على صدق موسى عليه السلام، وهي المعجزات.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: وسلطانٍ ظاهرٍ، وهو سلطان الحُجّة والإقناع بالعقل والعلم؛ لأنّ سلطان القوّة قد يكون فيه قهرٌ للغالِب لكنّه لا يقهر القلب، والله ﷻ يريد قلوباً لا يريد قوالباً، ولم يكن لسيّدنا موسى عليه السلام سلطانٌ من القوّة أمام فرعون، بل كان له سلطان الحُجّة.

(الآية ٩٧) - ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾:

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: الملأ هم القوم الّذين يملؤون العيون ويتصدّرون المجالس؛ أي عَليّة القوم.

﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ﴾: يبيّن لنا ﷻ بأنّ هؤلاء الملأ اتّبعوا أمر فرعون.

﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾: الرّشد يقابله الغيّ، وهذا القول يدلّنا على أنّ الملأ من قوم فرعون لم يتدارسوا أمر فرعون بتأنٍّ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث، فهم اتّبعوا أمر فرعون ليس عقليّاً، فأمر فرعون ليس رشيداً.

(الآية ٩٨) - ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾:

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: كلمة: ﴿يَقۡدُمُ﴾ تدلّ على الإقبال مواجهةً، وفيها شيءٌ من العزم؛ أي أنّه يتقدّم قومه في اتّجاهٍ واحدٍ، ويقودهم إلى النّار، فما داموا اتّبعوه في الدّنيا فلا بدّ أن يتّبعوه أيضاً في الآخرة.

﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾: الورود بمعنى الذّهاب إلى الماء دون الشّرب.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾: هذا تهكّمٌ شديدٌ، فقوم فرعون أوردوا أنفسهم هذا المهلَك؛ أي أنّهم يشعرون بالبؤس لحظة رؤيتهم جهنّم وشربهم من حميمها، فكلمة الوِرد تطلق على عمليّة الشّرب من الماء، وقد تطلق على مجموعةٍ يذهبون إلى الماء دون الشّرب منه، قال ﷻ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾ [مريم]، فالإنسان يفرح بأنّه سيشرب الماء، لكنّ هذا الماء يشوي الوجوه: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٢٩﴾ [الكهف: من الآية ٢٩].

(الآية ٩٩) - ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾:

الرّفد: هو العطاء والمعونة، وهذا تهكّمٌ بهم، فاللّعنة الّتي أُتبِعوها في الدّنيا والآخرة سمّاها الله ﷻ رِفداً؛ أي أنّ اللّعنة قد بقيت لهم، وما زال

المسلمون يلعنونهم حتّى هذه اللّحظة، ثمّ يصيرون إلى اللّعنة الكبرى يوم القيامة.

(الآية ١٠٠) - ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾: الخطاب هنا موجّهٌ إلى سيّدنا رسول الله ﷺ لتثبيت فؤاده، فيبيّن له الحقّ ﷻ أنّ الكافرين لن يكونوا بمنجى من العذاب.

﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾: من قصّ الأثر، قصص القرآن الكريم يتقصّ الحقائق، وقصص الإهلاك للأمم الّتي كفرت إنّما هي عبرةٌ، والنّاس تعلم أنّ ما رواه القرآن الكريم من قصصٍ هو واقعٌ، تدلّ عليه آثار الحضارات الّتي اندثرت وبقيت منها بقايا أحجارٍ ونقوشٌ، لذلك يقول الله ﷻ في موضعٍ آخر: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصّافّات]؛ أي أنّكم تشاهدون من الآثار ما هو قائمٌ وما هو حطيمٌ.

(الآية ١٠١) - ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾:

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾: حين أخذ الله ﷻ تلك الأقوام بالعذاب لم يظلمهم؛ لأنّ معنى الظّلم أن يكون لإنسانٍ حقٌّ فتسلبه هذا الحقّ، فتلك الأمم الّتي كفرت وأخذها الله ﷻ بالعذاب قد ظلمت نفسها بالشّرك، وكذّبت الرّسل الّذين جاؤوا معهم دليل صدقٍ وأمارات رسالةٍ.

﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ

رَبِّكَ﴾: لا تُغني عنهم آلهتهم المعبودة شيئاً، سواء كانت بشراً أم حجارةً، ولم ترفع عنهم العذاب الّذي تلقّوه عقاباً في الدّنيا وسعيراً في الآخرة.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: تخلّي الآلهة الّتي أشركوها مع الله ﷻ وعبدوها من دونه ﷻ، هذا التّخلّي يزيدهم ألماً وإهلاكاً نفسيّاً وتخسيراً، والتّتبيب معناه القطع والهلاك، قال ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد]؛ أي هلك وانقطع، كذلك الأخذ الّذي أخذ الله ﷻ به القرى الّتي كذّبت الأنبياء عليهم السلام.

(الآية ١٠٢) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾: فهو ﷻ قد أخذ كلّ هؤلاء أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ، لذلك يقول الله ﷻ هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي مثل الأخْذ الّذي أخذتُ به القرى الّتي كذّبت رسلها وظَلَمتْ نفسها، والأخْذ هنا عقابٌ على العمل.

﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: فقد ظلموا أنفسهم بقمّة الظّلم، وهو الكفر.

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: أي إنّ أخذه موجعٌ على قدر طلاقة قدرته سبحانه، والشّدّة تعني جمع الشّيء إلى الشّيء بحيث يصعب انفكاكه.

(الآية ١٠٣) - ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾: هذه الآيات تُخبر عن الّذي

حدث للأمم السّابقة، وتلفِت الإنسان إلى ضرورة الإيمان بالله ﷻ؛ لأنّه سيُحاسب على العمل وعلى الإيمان، ومن يسمع لقصص الأقوام السّابقة ويعتبر بما جاء فيها يكون صاحب بصيرةٍ نافذةٍ.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾: أي أنّ الفضيحة في هذا اليوم تكون مشهودةٌ من كلّ البشر، أمام من يعرفهم الإنسان وأمام من لا يعرفهم.

﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾: فالخلق سيشهدون جميعاً الخزي لمن لم يعتبر بالآيات ولم يؤمن بالله ﷻ.

(الآية ١٠٤) - ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾:

هكذا نعلم أنّ تأخّر مجيء يوم القيامة لا يعني أنّه لن يأتي، بل سوف يأتي لا محالة، ولكن لكلّ حدثٍ ميعادُ ميلادٍ.

﴿لِأَجَلٖ﴾: كلمة الأجل تُطلق مرّةً على مدّة عمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته، ويقول الله ﷻ أيضاً: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ [الرّعد: من الآية ٣٨]، وتطلق كلمة (الأَجَل) أيضاً على لحظة النّهاية وحدها، قال ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف]، وكلّ أَجَلٍ وإن طال فهو معدودٌ، وكلّ معدودٍ قليلٌ مهما بدا كثيراً.

(الآية ١٠٥) - ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾:

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾: أي لا تتكلّم أيّ نفسٍ في هذا اليوم إلّا بإذن الله ﷻ، وقد كانوا يتكلّمون في الحياة الدّنيا بطلاقة قدرته

الّتي منحهم إيّاها، حين أخضع لهم جوارحهم كاللّسان، أمّا في الآخرة فقد جعل الحقُّ ﷻ الجوارحَ مُؤتمرةً بأمره، ولم تعد مؤتمرةً بأمر الإنسان.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾: الاسم يدلّ على الثّبوت، فشقاءٌ ثابتٌ لمن نُعِت بالشّقيّ، وسعادةٌ ثابتةٌ لمن نُعِت بالسّعيد.

(الآية ١٠٦) - ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ﴾: حكموا على أنفسهم بالشّقاء لخروجهم عن منهج الله ﷻ، ويدخلون النّار أفراداً وزمراً، قال ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزّمر: من الآية ٧١]، وفي موضعٍ آخر يقول ﷻ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: من الآية ٣٨]، هكذا نفهم هذا الوصف الثّابت للشّقاء، فهم يجتمعون في الشّقاء لكنّهم يختلفون في نوع وكميّة العذاب، كلٌّ حسْب ذنوبه، والله ﷻ جاء هنا بالفعل: ﴿شَقُواْ﴾، ليبيّن لنا أنّهم هم الّذين اختاروا الشّقاء، فالله ﷻ خلق العباد وترك لهم حقّ الاختيار، وأنزل لهم المنهج، وأعان مَن اختار الإيمان على الطّاعة.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾: نحن نعلم أنّ الّذي يتنفّس في النّار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشّهيق ساخناً.

(الآية ١٠٧) - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: كلمة الخلود تفيد المكث الطّويل، مكوثٌ له ابتداءٌ وليس له انتهاءٌ.

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾: الجنّة والنّار لا بدّ أن يوجد لهما ما يعلوهما ويظلّلهما، ولا بدّ أن يوجد لهما أرضٌ، وقد ذكر ﷻ في القرآن الكريم أنّ السّماء سوف تمور وتتحرّك وتتشقّق، لكنّه قال ﷻ: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾ [إبراهيم]، فتُبدّل الأرض والسّماوات بأخرى تتعلّق باليوم الآخر.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾: عذاب الكافرين لا نهاية له، أمّا عذاب العاصي المؤمن على ما ارتكب من آثامٍ فهو لفترةٍ على قدر معاصيه ثمّ يعود ويدخل الجنّة، وبذلك يتحقّق أيضاً نقص الخلود في الجنّة؛ لأنّه لا يدخلها إلّا بعد أن يستوفي العقاب في النّار.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾: الله ﷻ فعّالٌ لما يريد، ولا يحكُمه أيّ شيءٍ، ولا يسأله أحدٌ عمّا يفعل.

(الآية ١٠٨) - ﴿*وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾:

﴿غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾: غير ممنوعٍ ولا مقطوعٍ.

(الآية ١٠٩) - ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾: الخطاب هنا للنّبيّ ﷺ، فهل كان عليه الصّلاة والسّلام في مريةٍ؛ أي في شكٍّ؟ الجواب: إنّ قول الآمر الأعلى

سبحانه وتعالى للأدنى؛ أي للنّبيّ ﷺ ينصرف إلى الدّوام؛ أي داوم على الأمر، كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ [الأحزاب]، أليس النّبيّ ﷺ هو أوّل المتّقين؟ الجواب: بلى، وإنّما المراد إدامة التّقوى.

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ﴾: فهم عبدوا الأصنام ليس باقتناع عقولهم، إنّما بتقليد الآباء، فإيمانهم إيمان تقليدٍ، وفي التّقليد جفافٌ للفطرة السّليمة.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾: أي سنعطيهم جزاءهم كاملاً؛ لأنّهم يُفسدون في الكون، والله ﷻ قد جعل لكلٍّ منهم حقّ الاختيار، وما دام الإنسان له حقٌّ في الاختيار فقد أنزل الله ﷻ منهجاً يتضمّن تكاليف إيمانيّةٍ، فرفضوا المنهج وقلّدوا الآباء وساروا في طريق إفساد الكون، لذلك كانت النّتيجة أن يوفّيهم الله ﷻ هذا النّصيب، وعندما نجد كلمة (نصيب) فالمقصود فيها الرّزق، وهنا المولى ﷻ يقرّر أنّ لهم نصيباً لكن ليس من الرّزق بل مِن العذاب، وهذا تهكّمٌ وسُخريةٌ منهم.

(الآية ١١٠) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: سورة (هود) هي السّورة الوحيدة في القرآن الكريم الّتي جاء فيها ذكر موسى عليه السلام مرّتين، في بدايتها وفي نهايتها، المرّة الأولى ذكر فيها علاقته مع فرعون، والمرّة الثّانية علاقته مع بني إسرائيل.

﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾: يصحّ أن يكون الاختلاف في أمر موسى عليه السلام، ويصحّ أن يكون الاختلاف في أمر الكتاب، والنّتيجة واحدةٌ؛ لأنّه لا انفصال بين موسى عليه السلام وبين الكتاب الّذي هو التّوراة.

قد يسأل سائلٌ: ما دام موسى عليه السلام قد أوتي الكتاب واختُلف فيه، فلماذا لم يأخذ الحقّ سبحانه وتعالى قوم موسى عليه السلام بالعذاب كما أخذ قوم نوحٍ أو قوم عادٍ أو قوم ثمود؟ نقول: هم لم ينجوا من عذاب الله عزّ وجلّ؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل عذابهم آجلاً، وهو يوم الحساب، لذلك قال بعدها مباشرة:

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾: فاختلف الأمر في رسالة موسى عليه السلام، فقد سبق فيه القول بالتّأجيل للحساب إلى يوم القيامة.

﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾: فهم في شكٍّ من يوم القيامة والحساب.

(الآية ١١١) - ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١﴾:

﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾: لا تعتقدوا أنّ تأجيل العذاب ليوم القيامة يعني الإفلات من العذاب، بل كلّ واحدٍ سيُوفّى جزاء العمل بالثّواب لمن أطاع، وبالعقاب لمن عصى أمر الله عزّ وجلّ، ونقف هنا وقفةً في أسلوب النّصّ القرآنيّ، فبعض النّاس الّذين لا يفهمون اللّغة العربيّة توقّفوا عند هذه الآية وقالوا: لماذا جاء بالتّنوين في كلمة: ﴿كُلّٗا﴾؟ هم لم يعلموا أنّ التّنوين يُغني عن جملةٍ كاملةٍ، و﴿كُلّٗا﴾ هنا في الآية الّتي نحن بصددها توجز أنّ كلّاً من الطّائع المؤمن والعاصي الكافر سيوفّى جزاءه ثواباً أو عقاباً.

﴿لَّمَّا﴾: تُستعمل في اللّغة بمعنى الحين والزّمان، كقول الحقّ ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، وكقول الحقّ ﷻ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف]، فنفهم أنّ ﴿لَّمَّا﴾ هنا تخدم فكرة العقوبة الّتي كانت تأتي في الدّنيا، وشاء الله أن يؤجّل العقوبة للكافرين إلى الآخرة.

﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾: اللّام لام القَسَم بأنّ الله ﷻ سيوفّيهم حسابهم ثواباً أو عقاباً.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: الخبير؛ أي صاحب العلم الدّقيق، والخبير يختلف عن العالِم الّذي قد يعلم الإجماليّات، لكنّ الخبير هو المُدرّب على التّخصّص، لذلك غالباً ما تأتي كلمتا اللّطيف والخبير معاً؛ لأنّ الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء، واللّطيف هو من يعلم الوصول إلى مواقع تلك الأشياء.

(الآية ١١٢) - ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾: الاستقامة معناها عدم الميل أو الانحراف ولو قيد شعرةٍ، وهذا أمرٌ يصعُب تحقيقه؛ لأنّ الفاصل بين الضّدّين أو بين المتقابلَين هو أدقّ من الشّعرة في بعض الأحيان، وفي الحديث عن أبي عليّ السّريّ قال: رأيت النّبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، روي عنك أنّك قلت: شيّبتني هودٌ، قال: «**نعم**»، فقلت: ما الّذي شيّبك، قصص الأنبياء وهلاك

الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[1]، وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، عجّل إليك الشّيب! قال: «**شيّبتني هودٌ وأخواتها؛ الحاقّة والواقعة وعمّ يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية**»[2]، ولولا أنّ الله ﷻ قال في كتابه الكريم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: من الآية ١٦]، لتعب المسلمون كثيراً، فالأمر بالاستقامة هو أمرٌ بدقّة الأداء المطلوب لله ﷻ أمراً ونهياً، بحيث لا نميل إلى جهةٍ دون جهةٍ، فتتطلّب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة، والاستقامة هي عنوان الدّين.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: يتحدّث المولى ﷻ هنا عن صفةٍ من صفات المؤمن وهي التّوبة، والتّوبة هي أن تعقد العزم على ألّا تعود إلى الذّنب؛ لأنّ كلّ بني آدم خطّاء، وما دام يتحدّث عن الاستقامة فأتى بالتّوبة معها، فالاستقامة قِيمٌ كاملةٌ، وقيمٌ ضابطةٌ لحركة الإنسان في الحياة.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾: أي ألّا تتجاوزوا الحدّ، فالإيمان قد جعل لكلّ شيءٍ حدّاً، إلّا أنّ حدود الأوامر تختلف عن حدود النّواهي، فالحقّ ﷻ إن أمرك بشيءٍ فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعدّاه، يقول ﷻ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٩]، هذا القول في الأوامر، أمّا في النّواهي فيقول جلّ وعلا: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: من الآية ١٨٧]؛ أي ابتعدوا عنها تماماً،

---

(١) شعب الإيمان: بابٌ في تعظيم القرآن، باب ذكر سورة هود، الحديث رقم (٢٤٣٩).

(٢) كنز العمّال: كتاب الأذكار من قسم الأفعال من الكتاب الثّاني من حرف الهمزة، باب البقرة، الحديث رقم (٤٠٩٢).

ويقول النّبيّ ﷺ: «**إنّ الحلال بيّنٌ وإنّ الحرام بيّنٌ وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهنّ كثيرٌ من النّاس، فمن اتّقى الشّبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشّبهات وقع في الحرام كالرّاعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكلّ ملك حمىً، ألا وإنّ حمى الله محارمه**»(١)، فينهانا الله ﷻ عن الاقتراب من شيءٍ من هذه النّواهي، وهذه اسمها استقامة الاحتياط، وهي تمنعك أن تدخل في الحرام، وجعل الله ﷻ الاستقامة أيضاً في مسائل الطّاعة، فقال ﷻ: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: من الآية ١٤١]، فهنا نهيٌ عن الإسراف، فقد يُسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده، ثمّ تأتيه ظروفٌ صعبةٌ فيندم على إسرافه، فيعصمنا الحقّ ﷻ من هذا الموقف، ويقول رسول الله ﷺ: «**سدّدوا وقاربوا، واعلموا أنّه لن يدخل أحدكم عمله الجنّة، وأنّ أحبّ الأعمال أدومها إلى الله وإن قلّ**»(٢)؛ لأنّ الدّين قويٌّ متينٌ، لذلك أمرنا الله ﷻ بالاستقامة وعدم الطّغيان.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يعلم حركة العباد، فهذه الحركة مرئيّةٌ.

(الآية ١١٣) - ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: الرّكون: هو المَيل والسّكن والمودّة،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشّبهات، الحديث رقم (١٥٩٩).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الرّقاق، باب القصد والمداومة على العمل، الحديث رقم (٦٠٩٩).

والرّكون يعني مجاملة المشركين والظّالمين وإعانتهم، وهذا يشجّعهم على التّمادي في الاستشراء بالظّلم والجحود.

﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾: فتصيبكم النّار بفعلكم هذا.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: يتخلّى الله ﷻ عنكم، ولن ينصركم أحدٌ، فلا وليٌّ ولا ناصر إلّا الله ﷻ.

(الآية ١١٤) - ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: الصّلاة هي عماد الدّين، والخطاب هنا موجّهٌ إلى النّبيّ ﷺ، وبعد ذلك من خلال النّبيّ ﷺ لكلّ أمّته، وإقامة الصّلاة تختلف عن أداء الصّلاة، فالإقامة تعني الأداء المطلوب على الوجه الأكمل، ومنه يُقال: أقام الشّيء؛ أي جعله قائماً على الأمر الّذي يؤدّي المهمّة.

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾: أي نهايته من ناحيةٍ ونهايته من النّاحية الأخرى؛ لأنّ طرف الشّيء هو النّهاية، تتحدّد نهاية الطّرفين من منطقة الوسط، فهي الفاصل بين الطّرفين، والنّهار عندنا إنّما نتعرّف عليه من بواكير الفجر الصّادق، فهذا أوّل طرفٍ نُقيم فيه صلاة الفجر، ثمّ يأتي الظّهر فإن وقع الظّهر قبل الزّوال حسِبناه من منطقة ما قبل الوسط وإن كان بعد الزّوال حسِبناه من منطقة ما بعد الوسط، وبعد الظّهر هناك العصر، وهو طرفٌ آخر.

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: كلمة زُلَفاً هي جمع زُلفة، مأخوذةٌ من: أزلفه؛ أي قرّبه، والجمع أقلّه ثلاثةٌ، ونحن نعلم أنّ لنا في اللّيل صلاة المغرب وصلاة

العشاء، لذلك نجد أنّ الإمام أبا حنيفة النّعمان يعدُّ الوتر واجباً، وهناك فرقٌ بين الفرض والواجب، والصّلاة فيها كلّ الأركان، ففيها صيامٌ؛ لأنّك تمتنع عن الطّعام والشّراب وشهوة البطن والفرج، وفيها الشّهادتان؛ لأنّك تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وفيها حجٌّ؛ لأنّك تتوجّه إلى الكعبة المشرّفة، وفيها زكاةٌ؛ لأنّ الصّلاة اقتطاع جزءٍ من الوقت، والزّكاة هي اقتطاع جزءٍ من المال، وأصل المال العمل، والعمل أصله اقتطاع جزءٍ من الوقت، لذلك فالصّلاة لا تسقط في حالٍ من الأحوال، إن لم تستطعها قائماً صلّيت قاعداً، وإن لم تستطعها قاعداً صلّيت مستلقياً، وهي صلةٌ مع الله ﷻ، لذلك لم تُفرض عن طريق جبريل عليه السلام، وإنّما فُرضت مباشرةً في رحلة الإسراء والمِعراج لأهميّتها، وهي مِعراج القلوب إلى حضرة علّام الغيوب، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: هذا التّعقيب يضع الصّلاة في قمّة الحسنات، وقد أوضح هذا ﷺ عندما قال: «**الصّلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّراتٌ ما بينهنّ إذا اجتنب الكبائر**»[1]، وقد اختلف المفسّرون في معنى السّيّئات والحسنات، فقال بعضهم: الحسنة هي ما جعل الله ﷻ على عملها ثواباً، والسّيّئة هي ما جعل الله ﷻ على عملها عقاباً، فبهذا المعنى أوّل الحسنات أن تشهد أن لا

(١) صحيح مسلم: كتاب الطّهارة، باب الصّلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر، الحديث رقم (٢٣٣).

إله إلّا الله، فهذه حسنةٌ أذهبت الكفر؛ لأنّ الحسنات يُذهبن السّيّئات، لذلك قال بعض العلماء: إنّ المسلم إذا ارتكب معصيةً أو كبيرةً من الكبائر لا يُخلَّد في النّار؛ لأنّه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيّئة الكفر أفلا تُذهِب ما دون الكفر؟ فهكذا يُخفّف العقاب على المسلم، فهو ينال عقاباً من النّار، ولكنّه لا يُخلَّد فيه، فلا يمكن أن نساوي بين مَن آمن بالله ﷻ وبين مَن لم يؤمن، وكذلك تساءل بعض العلماء: هل الفرائض فقط هي الحسنات الّتي تُذهب السّيّئات؟ الجواب: لا، فهناك أحاديثٌ وردت عن رسول الله ﷺ عن حسناتٍ من غير الفرائض، فقد قال ﷺ: «**صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفّر السّنة الّتي قبله والسّنة الّتي بعده**»[1]، وقال ﷺ: «**من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الّذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حولٍ منّي ولا قوّةٍ غفر له ما تقدّم من ذنبه، ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الّذي كساني هذا من غير حولٍ منّي ولا قوّةٍ غفر له ما تقدّم من ذنبه**»[2]، وقال ﷺ: «**من قال: سبحان الله وبحمده في يومٍ مائة مرّةٍ حُطَّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»[3]، فالحسنات مطلقةٌ سواء كانت فرضاً أم غير فرضٍ، وهي تُذهِب السّيّئات. تساءل بعض

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الصّيام، باب استحباب ثلاثة أيّام من كلّ شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس، الحديث رقم (١١٦٢).

(٢) المستدرك على الصّحيحين للحاكم: ج١، ص٦٨٧، الحديث رقم (١٨٧٠).

(٣) صحيح البخاريّ: كتاب الدّعوات، باب فضل التّسبيح، الحديث رقم (٦٠٤٢).

العلماء أيضاً بقولهم: إنّ السّيّئة عملٌ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجّل، فكيف تُذهبها الحسنة؟ وأُجيب عن هذا: إنّ ذهاب السّيّئة يكون إمّا عن طريق مَن يحفظ العمل ويكتبه عليك، فيمحوه الله ﷻ من كتاب سيّئاتك، أو أن يعفو الله ﷻ عنك فلا يُعاقبك عليه، أو يكون ذهاب العمل في ذاته فلا يرتفع.

وحين ننظر إلى مواقيت الصّلاة نجدها خمسة مواقيت، فمن تعلّق قلبه بالصّلاة إنّما ينشغل هذا القلب طوال وقت حركته بإقامة الصّلاة، ثمّ يأتي وقت اللّيل لينام، وكلّ من يرتكب معصيةً سينشغل فِكره بها لمدّةٍ، ولو لم يأته وقت صلاةٍ لأحسّ بالضّياع، أمّا إذا جاء وقت صلاةٍ فالقلب يتّجه طالباً المغفرة، فهي دعوةٌ متكرّرةٌ للكفّ عن الخطأ، فإذا وقع الإنسان في سيّئةٍ فليُتبعها بالحسنة؛ لأنّ الحسنة الواحدة بعشر أمثالها، وقد يُضاعفها الله تعالى، أمّا السّيّئة فإنّما تُكتب واحدةً، وقد قال ﷺ: «**أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يومٍ خمس مرّات هل يبقى من درنه شيءٌ؟**»، قالوا: لا يبقى من درنه شيءٌ، قال: «**فذلك مثل الصّلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا**»[1].

﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾: أي أنّ إقامة الصّلاة طرفي النّهار وزلفاً من اللّيل هي حسناتٌ تُذهب السّيّئات، وفي ذلك ذكرى وتنبيهٌ للنّفس إلى

(١) صحيح مسلم: كتاب الدّعوات، باب فضل التّسبيح، الحديث رقم (٦٦٧)، والدّرن: الوسخ.

شيءٍ غفلت عنه؛ أي أنّ هذا الشّيء كان موجوداً من قبل، ولكن جاءت الغفلة لتُنسيه، فالإخبار الأوّل أزال الجهل بهذا الشّيء، والإخبار الثّاني يُذكّرك بالحكم.

(الآية ١١٥) - ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾:

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾: جاءت كلمة (اصبر) لتخدم عمليّة الاستقامة، والصّبر نوعان: صبرٌ على مشقّة الطّاعة، كصبرك على أن تقوم من النّوم لتُصلّي الفجر، وصبرٌ عن الشّهوات، وهكذا نعلم أنّ الصّبر على إطلاقه مطلوبٌ في الأمرين.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: المحسنين: هم الّذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان، وهو أن تُلزم نفسك بجنس ما فرض الله ﷻ عليك من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ؛ لأنّ العبادة ليست اقتراحاً من عابدٍ لمعبودٍ، بل الله ﷻ المعبود هو الّذي يُحدّد ما يُقرّبك إليه.

(الآية ١١٦) - ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾:

﴿فَلَوۡلَا﴾: كلمة (لولا) تحضيضيّة، والتّحضيض إنّما يكون حثّاً لفعلٍ لم يأت زمنه، فإن كان الزّمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه تكون (لولا) للتّحسّر والتّأسّف، كقوله ﷻ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾ [يونس: من الآية ٩٨]، وكلمة (لولا) لها استعمالان في اللّغة، فهي

إن دخلت على جملةٍ اسميّةٍ فهي تدلّ على امتناع الوجود، كقول إنسانٍ لآخر: لولا أنّ فلاناً أبوك لضربتك على ما أذنبت، وتسمّى (لولا) في هذه الحالة حرف امتناعٍ لوجودٍ، وإذا دخلت (لولا) على جملةٍ فعليّةٍ فهي أداة تحضيضٍ وحثّ مُخاطَبٍ على أن يفعل شيئاً، كمَن يُشجّع طالباً على المذاكرة فيقول له: لولا ذاكرت بجدٍّ واجتهادٍ في العام الماضي لما نجحت ووصلت إلى هذه السّنة الدّراسيّة.

﴿كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾: بيّن لنا الحقّ ﷻ أنّه قد أهلك الأمم الّتي سبقت؛ لأنّه لم توجد منهم فئةٌ تنهى عن الفساد في الأرض، وجاء الإهلاك لامتناع من يُقاوم الفساد بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وضرب الحقّ ﷻ لنا المثل بالبقيّة في كلّ شيءٍ، وأنّها هي الّتي تبقى أمام الأحداث، ولنا المَثل في موقف سيّدنا رسول الله ﷺ مع أمّ المؤمنين عائشة ﵂ حينما سألها عن شاةٍ أُهديت له، فعن عائشة ﵂: أنّهم ذبحوا شاةً، فقال النّبيّ ﷺ: «**ما بقي منها؟**»، قالت: ما بقي منها إلّا كتفها، قال: «**بقي كلّها غير كتفها**»[1]، السّيدة عائشة ﵂ نظرت بالمنظور الواقعيّ، فتركت ما يُحبّ النّبيّ ﷺ وهو الكتف وتصدّقت بباقي الشّاة، لكنّ النّبيّ ﷺ لفتَ لفتةً إيمانيّةً عظيمةً، فما تصدّقت به هو الّذي بقي، ويؤيّد هذا حديثه ﷺ: «**يقول ابن آدم: مالي مالي**»، قال: «**وهل لك يا ابن آدم من مالك إلّا ما**

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب صفة القيامة والرّقائق والورع، باب ٣٣، الحديث رقم (٢٤٧٠).

أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت؟»[1]، ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور وإلى المدخور، فيقول الحق ﷻ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: من الآية ٤٦]، بينما يصف ﷻ المدخور بقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾ [الكهف: من الآية ٤٦]، وفي آيةٍ أخرى يقول ﷻ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٧٦﴾ [مريم: من الآية ٧٦]، فلا بدّ أن ننظر إلى الباقيات في الأشياء؛ لأنّها هي الّتي يُعوّل عليها، ويلفتنا الله ﷻ إلى ذلك في أكثر من موضعٍ في كتاب الله ﷻ، كقوله ﷻ: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الشّورى: من الآية ٣٦]، فإيّاك أن تنظر إلى ما ذهب، لكن انظر إلى الباقي.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي لولا أن كان في النّاس بقيّةٌ من الخير والإيمان واليقين، وكانوا ينهَون عن الفساد في الأرض، لولاهم لخسف الله ﷻ الأرض بمن عليها، وهذا نتيجة هذه البقيّة، يقول ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرّعد: من الآية ١٧]، وفي العصر الحديث نقول: البقاء للأصلح، فالحقّ سبحانه إنّما يحفظ الحياة بهؤلاء الّذين ينهَون عن الفساد في الأرض؛ لأنّهم يعملون على ضوء منهج الاستقامة الّذي أمر به الله ﷻ، وهذا المنهج لا يزيد الله ﷻ مُلكاً، ولا يزيد صفةً من صفات كماله ﷻ؛ لأنّه ﷻ خلق الكون بكلّ صفات الكمال فيه، وإنّما منهج الله ﷻ يُصلح حركة الحياة

(١) صحيح مسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، الحديث رقم (٢٩٥٨).

والأحياء، ويعود بالخير على مخلوقات الله ﷻ لا على الله ﷻ، فكما رفع الحقّ ﷻ السّماء بلا عَمَدٍ وجعل الأمور مستقرّةً متوازنةً فلكم أن تعدِلوا في الكون في الأمور الاختياريّة بميزانٍ دقيقٍ؛ لأنّ اعوجاج الميزان إنّما يُفسد حركة الحياة فيحدث الظّلم والفساد، ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاطل خير الكادح، ويرى النّاسُ العاطلَ وهو يحيى في ترفٍ من سرقةٍ ورشوةٍ وغيره فيفعلون مثله، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد، وينزوي أصحاب المواهب.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾: وقد أنجى الحقّ ﷻ بعضاً ممّن نهوا عن الفساد في الأرض، ونرى أمثلةً على ذلك في القرية الّتي كانت حاضرة البحر وكانت تأتيهم حيتانهم يوم السّبت شُرّعاً، اليوم الّذي منع الله ﷻ فيه الصّيد، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف]، هكذا أنجى الله ﷻ الّذين نَهوا عن السّوء في تلك القرية، لذلك نجد في بعض المجتمعات عنصرين، الأوّل: مجموعةٌ تنهى عن الفساد، وعنصرٌ آخر ينفتح على المجتمع بباب التّرف على مِصراعيه، ويكون فيه الرّشوة والسّرقة والفساد والغصب، فلا بدّ من مواجهة هذا الفساد، ولا بدّ من أن يقف المستقيم في وجه المُترَف والفاسد حتّى لا يتنعّم هذا بشقاء الآخرين.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾: كلمة ﴿ظَلَمُوا﴾ تُبيّن أنّ مادّة التّرف الّتي عاشوا فيها جاءت من الظّلم وأخذ حقوق النّاس، ومادّة ترفٍ تعني

نعمةٌ يتنعّم بها الإنسان، ومنها أَترف وأُترف؛ أي أطغته النّعمة وأنسته المُنعم، ومدّ الله ﷻ له في النّعمة ليأخذه أخذ عزيزٍ مقتدرٍ، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]، والّذين يحدّثنا الله ﷻ عنهم في هذه الآية قد فتح ﷻ عليهم أبواب الضّرّ؛ لأنّهم غفلوا عنه.

﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾: أي كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل، وهو اتّباع الاستقامة والخير والعدل؛ لأنّ كلمة مجرمين مأخوذةٌ من مادّة جُرم، وتعني قَطْع؛ أي قطْع اتّباع منهج الخير من السّماء، والغفلة عن الإيمان بالخالق ﷻ، والاستغراق في التّرف الّذي حقّقوه لأنفسهم من ظلم الآخرين.

(الآية ١١٧) - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

﴿وَمَا كَانَ﴾: أي يستحيل أن يُهلِك الله ﷻ القرى بظلمٍ؛ لأنّ مُراد الحقّ ﷻ النّفع والخير، لذلك فالظّلم غير واردٍ على الإطلاق في العلاقة بين الخالق ﷻ وبين المخلوقات.

﴿ٱلْقُرَىٰ﴾: حين يورد الله ﷻ كلمة القُرى فتعني أماكن السّكن.

﴿بِظُلْمٍ﴾: أي أنّه منزّهٌ عن أن يُهلكهم بمجاوزة حدٍّ، لكن لله ﷻ أن يُهلكهم بعدلٍ؛ لأنّ العدل ميزانٌ، فإن كان الوزن ناقصاً كان الخُسران، ومن العدل العقاب، وإن كان الوزن مستوفياً كان الثّواب.

﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾: الإصلاح في الكون هو استقبال ما خلق الله ﷻ لنا في الكون من ضروريّات لننتفع بها دون إفسادٍ منّا، وقد كفانا الله ﷻ ضروريّات الحياة من طعامٍ وماءٍ وهواءٍ، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب، وأن نتعلّم ونبحث ونبتكر، فما نصنعه نحن من تجويدٍ لأساليب الحياة ورفاهيّتها فهذا إصلاحٌ مطلوبٌ منّا، فالمُصلح هو الّذي يترك الصّالح على صلاحه ويزيده صلاحاً يؤدّي إلى رفاهية النّاس وراحتهم، والوصول إلى الغاية بأقلّ مجهودٍ ووقتٍ، والقرى الّتي يُصلح أهلها لا يُهلكها الله ﷻ؛ لأنّ الإصلاح يكون نتيجة اتّباع منهج الخير الّذي تتوازن به حركة الإنسان مع حركة الكون.

(الآية ١١٨) - ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾:

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾: نحن نعلم أنّ الإنسان قد طرأ على الكون، والله ﷻ خلق في الكون مقوّمات الحياة المُسخَّرة للإنسان، وكان من الممكن أن يجعل الله ﷻ البشر أمّةً واحدةً مُهتديةً لا تخرج عن نظام إرادة الله ﷻ، كما لم تخرج الشّمس أو القمر أو الهواء أو الماء أو أيٌّ من الكائنات الأخرى المُسخّرة لإرادته ﷻ.

﴿وَلَوۡ﴾ تفيد الامتناع؛ أي أنّ الله ﷻ لم يجعل النّاس أمّةً واحدةً، بل جعلهم مختلفين، وقد حاول بعض الّذين يريدون أن ينتقدوا الإسلام إثارة شبهةٍ بقولهم: ألا تتعارض هذه الآية مع قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ

﴿إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: من الآية ١٩]؟ وظنّ أصحاب هذا القول أنّ البشر لم يلتفتوا إلى خالقهم ﷻ من البداية، ثمّ بعث الله ﷻ الأنبياء ليلفتهم إلى المنهج، نقول لهؤلاء: لقد ضمِن الله ﷻ للنّاس قُوتهم وقوام حياتهم، وضمِن لهم المنهج الإيمانيّ منذ أن أمر آدم عليه السلام وحوّاء بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهمّة الخلافة فيها، قال ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: من الآية ١٢٣]، فنحن نعلم أنّ الله ﷻ أنزل المنهج مع سيّدنا آدم عليه السلام، ثمّ طرأت الغفلة فاختلف النّاس، فبعث الله ﷻ الأنبياء عليهم السلام ليحكموا فيما اختلف فيه النّاس، فقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني أنّه ﷻ لو شاء لجعل النّاس كلّهم على هدايةٍ؛ لأنّه بعد أن خلقهم وأنزلهم إلى الأرض وأنزل لهم المنهج كانوا على هدايةٍ، لكن بحكم خاصيّة الاختيار الّتي منحهم ﷻ إيّاها اختلفوا، لذلك يقول ﷻ بعدها: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾؛ أي أنّهم سيظلّون على هذا الخِلاف.

(الآية ١١٩) - ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: أي أنّ الحقّ ﷻ قد خلق الخلق للرّحمة والاختلاف، فهذه سنّة الله ﷻ في الخلق، فحين نرى اسم إشارةٍ أو ضميراً عائداً على كلامٍ متقدِّمٍ فنحن ننظر إلى ما تقدّمه، والحقّ ﷻ حين تكلّم عن خلق الإنسان قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات]، وهذا هو المُراد الشّرعيّ من العبادة، لكن المُرادات الاجتماعيّة

تحكّمت فيها خاصيّة الاختيار فحدث الاختلاف، ونشأ هذا الاختلاف عن تعدّد الأهواء، فلو أنّ هوانا كان واحداً لما اختلفنا، لذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: من الآية ٧١]، وما كان للعالم أن يستقيم لو اتّبع الله ﷻ أهواء البشر المختلفة، ولكن أحوال هذا العالم يمكن أن تستقيم إذا صدرت هذه الحركة الاختياريّة عن هوىً واحدٍ، لذلك قال النّبيّ ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تَبَعاً لما جئت به**»[1]، وشاء الحقّ ﷻ أن يجعل مواهبنا مختلفةً ليرتبط العالم كلّه بعضه ببعض ارتباط تكاملٍ وضرورةٍ، لا ارتباط تفضّلٍ وتفضيلٍ، لذلك يقول المولى ﷻ: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ [الزّخرف: من الآية ٣٢].

فإن كان الاختلاف في المنهج فهذا ما يولّد الكفر أو الإيمان، وعندما يكون هناك كفرٌ يستشعر المؤمن حلاوة الإيمان، ولو لم يكن للكفر وظيفةٌ لما خلقه الله ﷻ، فالكفر عندما يكون موجوداً يشتدّ الإيمان في مواجهته، كما يُعاون الألمُ العافيةَ، ولولا الألم ما جاء الإنسان إلى الطّبيب ليُشخّص الدّاء ويصف الدّواء الشّافي بإذن الله ﷻ، ولو اتّفقنا جميعاً في الأمزجة لوجدنا التّعاند والتّعارض، وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة، والله ﷻ عندما يقول: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ ثمّ يقول في الآية ذاتها: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ

(١) جامع العلوم والحكم: ج١، ص٤٣، الحديث رقم (٤١).

جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾، فالله ﷻ عَلِم أزلاً مَن سيختار الإيمان ومَن سيختار الكفر، لسبق علمه الأزليّ بمُرادات عباده واختياراتهم.

(الآية ١٢٠) - ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ﴾: المقصود قصّة كلّ رسولٍ ذكرها الله ﷻ في هذه السّورة.

﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾: أنباء: جمع نبأ، وهو الخبر العظيم الّذي له أهميّةٌ، والّذي يختلف فيه الحال عند العلم به، وأخبار الرّسل عليهم السلام تتناثر بلقطاتٍ مختلفةٍ عبر سور القرآن الكريم، وكلّ رسولٍ يُعالج الدّاء الّذي عانى منه قومه، وكذلك ما عاناه كلّ رسولٍ من عَنَت القوم المبعوث إليهم، وجاء ذِكر تلك الأنباء في القرآن الكريم لتثبيت فؤاد الرّسول ﷺ؛ لأنّ النّبيّ سيُصادف في الدّعوة المتاعب والصّعاب، فإذا ما ذُكِر له أخبار الرّسل والصّعاب الّتي تعرّضوا لها تهون عليه المصاعب.

والفؤاد هو الوعاء الّذي من مهمّته أن يكون مستعدّاً لاستقبال كلمة الحقّ تبارك وتعالى، وليقبل تنبيه الذّكرى وجلال الموعظة وكمال الوارد من الله جلّ وعلا.

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: وما يأتي من الحقّ ﷻ هو الحقّ أيضاً، والحقّ هو الشّيء الثّابت الّذي لا يطرأ عليه تغيير، والموعظة قد تتطلّب من الإنسان شيئاً فيه التزامٌ.

(الآية ١٢١) - ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: هنا يُخاطب المولى ﷻ النّبيّ ﷺ.

﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: أي اصنعوا ما شئتم، معنى ذلك أنّه رسولٌ من الله ﷻ، له رصيدٌ قويٌّ من الإيمان بإلهٍ قادرٍ على الخصم، فرسول الله ﷺ والّذين آمنوا معه لا يواجهون الخصم بذواتهم، ولا بعددهم وعُدَدهم، وإنّما بالرّكن الرّكين الّذي يستندون إليه، وهو الله ﷻ.

نحن نعلم أنّ كلّ كائنٍ منّا له مكانٌ؛ أي له حيّزٌ، يُقال: فلانٌ له مكانةٌ في القوم؛ أي له مركزٌ مرموقٌ إذا خلا منه لا يستطيع أحدٌ أن يشغله، هذه المكانة تدلّ على الشّرف والعَظَمة والسّيادة والوجاهة ونباهة الشّأن، فقول الله ﷻ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي اعملوا على قدر طاقتكم، فإنّ لمحمّدٍ ربّاً سينصره، وهذا تهديدٌ لهم وليس أمراً.

﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾: معنى ذلك أنّ قدراتكم كلّها محدودةٌ؛ لأنّكم من الأغيار، أمّا فعل الله ﷻ فهو غير محدودٍ.

(الآية ١٢٢) - ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

هذا تهديدٌ ووعيدٌ لأولئك الكفّار، فهم ينتظرون وعد الشّيطان لهم، والمؤمنون ينتظرون وعد الرّحمن ﷻ لهم، لذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: من الآية ٤٤].

(الآية ١٢٣) - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ما جاء من هذه الأنباء هو غائبٌ عنكم، يُخبركم به الله ﷻ من خِلال ما يُنزّل على رسوله ﷺ، وإذا أخبرنا في القرآن الكريم بخبرٍ لم يجئ أوانه بعد، فلنفهم أنّه قد أخبر به من له العلم بالكون وما يجري فيه، والإنسان بينه وبين المستقبل حجابٌ، وبينه وبين الماضي حجابٌ، وقد يكون الحجاب حجاب زمنٍ، وقد يكون حجاب مكانٍ، فالغيب لله ﷻ، وقد طمر الحقّ ﷻ في القرآن الكريم أموراً لو كشف عنها النّبيّ ﷺ لكان الحديث عنها زمن نزولها فوق مستوى العقول والإدراك، فالقرآن الكريم صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وفي كلّ زمنٍ يأخذون منه ما تطيقه العقول البشريّة في ذلك الوقت.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾: الأمور كلّها تُرجَع إليه ﷻ، وليس الغيب فقط.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾: هذا أمرٌ للنّبيّ ﷺ، ومن خلاله لكلّ المؤمنين، فبما أنّ الأمر يعود إليه ﷻ، ولا يستطيع أحدٌ أن يخرج عن إرادته جلّ وعلا فأطعه، فالعبادة هي طاعةٌ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾: التّوكّل هو اطمئنان القلب، مع الأخذ بالأسباب.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: الله ﷻ يعلم السّرّ وأخفى، وإن ظنّ الإنسان أنّه سيفلت من عقاب الدّنيا فلن يفلت من عدالة الآخرة.

تفسير سورة
(يوسف)
من الآية: (١ – ٥٢)

سورة (يُوسُف)

القصص القرآنيّ هو أحسن القصص، وقصّة هذه السّورة تتعلّق بسيّدنا يوسف وأبوه سيّدنا يعقوب –عليهما السّلام–، وهما نبيّان من أنبياء الله ﷻ، ويعقوب عليه السلام كان يعيش في أرض كنعان، وكان له اثنا عشر ولداً من أربع زوجات، إحداهنّ هي أمّ يوسف، ومع يوسف أخوه بنيامين من أمّه وأبيه، وقد ذُكِرَت قصّة النّبيّ يوسف عليه السلام في هذه السّورة كاملةً، بينما ذُكِر في سورة (هود) قصّة هودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ ولوطٍ وإبراهيم وموسى عليهم السلام، فيورد الله ﷻ قصص الأنبياء بعباراتٍ موجزةٍ بليغةٍ تؤدّي الغرض في سياق السّورة الّتي جاءت بها، فإذا جمعنا كلّ المقاطع في سور القرآن الكريم كلّها تتبيّن معنا قصّة موسى عليه السلام أو إبراهيم عليه السلام وهكذا، أمّا هنا فقد أفرد القرآن الكريم سورةً خاصّةً لسيّدنا يوسف عليه السلام، وليس هذا تفضيلاً له على سائر الأنبياء عليهم السلام، لكن لا شكّ بأنّ هذه القصّة العظيمة شملت أموراً وعِبراً وعِظاتٍ بالغةٍ للإنسانيّة حتّى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، والقصص القرآنيّ يأتي لتثبيت قلب النّبيّ ﷺ ولنأخذ العِبرة ونتمعّن ونتّعظ، ونجد أنّنا هنا أمام مجموعةٍ من حشدٍ كبيرٍ من نماذج الشّخصيّات المختلفة في هذه السّورة، حيث يوجد نموذج يوسف العبد الصّالح الّذي تربّى في بيت النّبوّة، في بيت يعقوب عليه السلام، ويعقوب العبد الصّالح والأب الملهوف المُحبّ، ونجد الأخوة والغِيرة والحسد والكيد، ونموذج امرأة العزيز والإغراء والفتنة، ونموذج النّسوة في الطّبقة الغنيّة كيف يكونون، ونموذج العزيز، ونموذج

المَلِك، فنتمعّن في كلّ شخصيّةٍ، فسورة (يوسف) تمثّل منهجاً كاملاً، ففيها التّوحيد والفقه والحياة السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.. كلّها مُتكاملةً في سورةٍ واحدةٍ.

ونجد في هذه السّورة من المِحَن صنوفاً متعدّدة، وقد قال النّبيّ ﷺ: «**إنّ أشدّ النّاس بلاءً الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل**»[1]، فقد ابتلي النّبيّ يوسف عليه السلام بمحنٍ كثيرة، محنته مع كيد الإخوة، ومِحنة الجُبّ الّذي أُلقي فيه، ومحنة الرّقّ عندما بيع كبضاعةٍ، ومحنة امرأة العزيز وكيدها، ومحنة السّجن الّذي وضع فيه، ومحنة العزّ والجاه عندما أصبح عزيز مصر.

(الآية ١) - ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾:

﴿الٓرۚ﴾: بدأت هذه السّورة بالأحرف المُقطّعة، وقد تحدّثنا عنها بشكلٍ مفصّلٍ عند تفسير سورة (البقرة).

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: الآيات تعني المعجزات، قال ﷻ: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾ [الأعراف]؛ أي أعطنا معجزةً.

عندما يقول المولى ﷻ: (كتاب) ينصرف المعنى إلى القرآن الكريم.

﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: أي الّذي يبيّن كلّ شيءٍ تحتاجه حركة الإنسان في الأرض، قال ﷻ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨].

(الآية ٢) - ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾: أي أنّ القرآن الكريم قد تعدّى كونه مكنوناً في اللّوح

---

(١) سنن النّسائيّ الكبرى: كتاب الطّبّ، باب أيّ النّاس أشدّ بلاءً، الحديث رقم (٧٤٨٢).

المحفوظ ليُباشر مهمّته في الوجود مع رسول الله ﷺ مفرّقاً ليُعالج كلّ المسائل الّتي تعرّض لها المسلمون، والله ﷻ يقول: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٥]؛ أي أنّ الحقّ ﷻ أنزله من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا ثمّ أنزله مفرّقاً ليُعالج الأحداث ويُباشر مهمّته في الوجود الواقعيّ.

﴿قُرْءَانًا﴾: مرّةً يصفه ﷻ بأنّه قرآنٌ بمعنى المقروء، ومرّة يصفه بأنّه كتابٌ مسطورٌ كالآية السّابقة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهذا من معجزات التّسمية.

﴿عَرَبِيًّا﴾: هو قرآنٌ عربيٌّ، وقد جعل الله ﷻ اللّغة العربيّة وعاءً لكلامه الكريم، فإنّ فيها من الإمكانات والميّزات ما لا تجده في أيّة لغةٍ من لغات الأرض، ولن تستطيع أن تفهم القرآن الكريم إلّا إذا فهمت فقه اللّغة العربيّة، فالجملة لها معنىً، والكلمة لها معنىً، فمثلاً كلمة: (عين) تُطلق على عين الماء، وعلى الجاسوس، وعلى العين الّتي نرى بها، فالكلمة الواحدة تعطي عدّة معانٍ، وكذلك فإنّ الحركة الإعرابيّة في اللّغة تُغيّر المعنى تماماً، فهناك كثيرٌ من الأمور في اللّغة العربيّة، ولا بدّ من الاهتمام بها وتعلّمها؛ لأنّها لغة القرآن الكريم، يقول ﷺ: «**أحبّوا العرب؛ لأنّي عربيٌّ، والقرآن عربيٌّ، وكلام أهل الجنّة عربيٌّ**»[1]، وهذا ليس تعصّباً، وإنّما هي حقائق، واللّغة العربيّة محفوظةٌ بالقرآن الكريم، فلولا القرآن الكريم لانتهت اللّغة العربيّة من الوجود، ولن يستطيع أحدٌ أن يتصدّى لفهم وتفسير القرآن الكريم إذا لم يكن متبحّراً في اللّغة العربيّة وفي فقهها.

---

(١) شعب الإيمان: باب في حبّ النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (١٤٣٣).

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾: يستنهض الله ﷻ همّة العقل ليُفكّر في الأمر، والمنصف في الحقّ يهمّه أن يستقبل النّاس ما يعرضه عليهم بالعقل بعكس المُدلّس الّذي يهمّه أن يستر العقل جانباً، فهو لن يدعوك للتّفكير بعقلك، لكنّ ديننا هو دين العقل.

(الآية ٣) - ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾:

﴿نَحۡنُ نَقُصُّ﴾: حين يتحدّث الحقّ ﷻ عن فعلٍ من أفعاله يأتي بضمير الجمع؛ لأنّ كلّ فعلٍ من أفعاله يتطلّب وجود صفاتٍ متعدّدةٍ، والله ﷻ يجمع كلّ هذه الصّفات، وحين يتكلّم الله ﷻ عن الذّات فلا يأتي بصيغة الجمع، يقول ﷻ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه].

﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾: علينا أن نلتزم الأدب عند الكلام عن ذات الله ﷻ إلّا ما أخبرنا عن نفسه ﷻ، لذلك لا يصحّ أن نقول عن الله ﷻ: إنّه قصّاص، فلا يصحّ أن نشتقّ من أفعاله اسماً له ﷻ؛ لأنّه لم يصف نفسه في أسمائه الحسنى بذلك.

﴿نَقُصُّ﴾: كلمة قصّ تعني الاتّباع، قال بعض العلماء: إنّ القصّة تسمّى كذلك؛ لأنّ كلّ كلمةٍ تتبع كلمةً، وهي مأخوذةٌ من قصّ الأثر، وهو تتبّع أثر السّائر على الأرض حتّى يعرف الإنسان مصير من يتتبّعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتّجاه الّذي سار فيه مَن يبحث عنه، ولنقرأ قول الحقّ

جلّ وعلا: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص]، قُصّيه؛ أي تتبّعي أثره، وفي قصّة موسى عليه السلام مع فتاه يقول ﷻ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾؛ أي تابعا الخطوات، فهكذا يتبيّن لنا أنّ القصّ هو تتبُّع ما حدث بالفعل، فتكون كلّ كلمةٍ مصوّرةً لواقعٍ لا لبس فيه، ففي القصص البشريّ نجد لقطاتٍ خياليّةً من أجل الحبكة الفنّيّة والإثارة، أمّا قصص القرآن الكريم فوضعه مختلفٌ تماماً، فقصص القرآن الكريم كلّها إنّما تتتبّع ما حدث فعلاً لنأخذ منه العِبرة، وهو نوعٌ من التّاريخ الصّادق.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: يبيّن لنا ﷻ أنّ الحُسن أتاها كونها من كلامه الكريم، والكتب السّابقة تحدّثت عن قصّة يوسف عليه السلام، فالقصّة أحداثها واحدةٌ، أمّا صياغة المواجيد النّفسيّة، وإبراز المواقف المطويّة في النّفس البشريّة، كلّ ذلك جاء في حبكةٍ رائعةٍ ذات أداءٍ بيانيٍّ معجِزٍ لم تأت في أيٍّ من الكتب، وكذلك ما اشتملت عليه من عِبَرٍ متعدّدةٍ، لذلك فهي أحسن القصص، وكذلك هي سورةٌ اشتملت على لقطاتٍ متعدّدةٍ تُساير العمر الزّمنيّ والعقليّ والعاطفيّ للإنسان في كلّ أطواره، ضعيفاً مغلوباً على أمره ثمّ قويّاً مسيطراً ممكّناً.

﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾: المقصود بالغفلة هنا أنّ رسول الله ﷺ كان أُمّيّاً، ولم يكن يُعرَف عنه قبل نزول القرآن الكريم كونه خطيباً ولا شاعراً ولا كاتباً، وكلّ ما عُرِف عنه هو

الصّفات الخُلُقيّة العالية من صدقٍ وأمانةٍ، فهو لم يكذب في يومٍ من الأيّام.

(الآية ٤) - ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾: أصل الكلمة: يا أبي، نجد في اللّغة العربيّة كلمات أبي أبتِ أبتاه، وكلّها تؤدّي معنى الأبوّة، وإن كان لكلٍّ منها ملحظٌ لغويٌّ.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾: نحن نرى الشّمس والقمر، لكن في وقت ظهورهما، بينما حلم يوسف عليه السلام بأنّه رآهما معاً ومعهما الكواكب، فالكواكب متناثرةٌ في السّماء، آلافٌ لا حصر لها، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط قد جُمعوا مع الشّمس والقمر؟! لا بدّ أنّها اتّصفت بصفاتٍ خاصّةٍ ميّزتها عن غيرها من الكواكب الأخرى حتّى استطاع يوسف أن يعدّها في الرّؤيا، هو رآها في الرّؤيا شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً، ثمّ رآها بعد ذلك ساجدةً، لنرى دقّة الأداء القرآنيّ، هذا يعني أنّه رآها أوّلاً بصفاتها الّتي نرى بها الشّمس والقمر والنّجوم من غير سجودٍ، ثمّ رآها عليه السلام وهي ساجدةً له، بمعنى الخضوع لأمر الله سبحانه وتعالى.

﴿سَٰجِدِينَ﴾: جمع مذكّر سالم، ولا يُجمع جمع المذكّر السّالم إلّا إذا كان المفرد عاقلاً، والعقل يتميّز بقدرة الاختيار بين البدائل، فهم لم يسجدوا ليوسف عليه السلام، وإنّما سجدوا بأمرٍ من الله تبارك وتعالى، فهم يعقلون أمر الله جلّ وعلا.

(الآية ٥) - ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾: حين يورد القرآن الكريم خطاب أبٍ لابنه نجد كلمة: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ فيها عطفٌ وحنانٌ من الأب، وهنا كان يوسف عليه السلام صغيراً عند تحذير أبيه له.

﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾: فَهِمَ يعقوب عليه السلام أنّ لرؤيا يوسف تأويلاً، وكلمة رؤيا المراد منها رؤيا مناميّة؛ لأنّ الشّمس والقمر والنّجوم لا يسجدون لأحدٍ، وهذا يوضّح لنا دقّة اللّغة العربيّة، فهي كلمةٌ واحدةٌ ويختلف معناها باختلاف ما رُئي، فرؤيتك وأنت يقظان يُقال عنها: (رؤية) بالتّاء المربوطة، ورؤيتك وأنت نائمٌ يُقال عنها: (رؤيا) بالألف الممدودة.

وينظر يعقوب عليه السلام بنظر النّبوّة، فإن قصّ يوسف الرّؤيا على إخوته قد تجعلهم الأغيار البشريّة يحسدونه، ويعقوب عليه السلام عَلِم تأويل الرّؤيا بأنّها النّبوّة، وأنّها نبوءةٌ لأحداثٍ سوف تقع، ولا بدّ أنّ يعقوب عليه السلام قد علم قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرّؤيا، فلا بدّ حينئذٍ أن يكيدوا له كيداً فيصيبه منهم مكروهٌ، فهم قد أصابهم الضّيق من يوسف وهو ما زال طفلاً، فكيف إن علموا بهذه الرّؤيا الّتي سيسجد له فيها الأب والأمّ والإخوة؟! وإخوة يوسف هم الأسباط، جمع سبطٍ، والسّبط شجرةٌ ذات أصلٍ واحدٍ ولها أغصانٌ كثيرةٌ، ويُقال مجازاً: شجرة النّسب، فالسّبط قبيلةٌ متفرّعةٌ من أصلٍ واحدٍ، والأسباط هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام، وهم اثنا عشر

قبيلة تُنسَب إلى أبناء يعقوب الاثني عشر، وقد ذُكرت كلمة الأسباط في القرآن الكريم خمس مرّات.

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾: الكيد هو احتيالٌ مستورٌ لما لا تقوى على مجابهته، فالقويّ قد يقدر على المواجهة، أمّا الضّعيف فيلجأ إلى الكيد.

وهنا يجب أن ننتبه أنّ يعقوب عليه السلام قال ليوسف عليه السلام: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾، ولم يقل: (فيكيدوك)، وهذا من فَهْمِ نبوّة يعقوب عليه السلام؛ لأنّ هناك فارقاً بين العبارتين، فكلمة يكيدوك تعني أنّ الشّرّ المستور الّذي يدبّرونه ضدّك سوف يُصيبك بأذىً، أمّا (يكيدوا لك) فتعني أنّ كيدهم الّذي يريدون به إلحاق الضّرّ بك بالنّتيجة سيكون لحسابك يا يوسف، لذلك نجد الله سبحانه وتعالى يقول في موضعٍ آخر من السّورة: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾؛ أي كدنا لصالحه.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: هذه العداوة معروفةٌ لنا، فالشّيطان خرج من الجنّة ملعوناً مطروداً بخلاف آدم عليه السلام الّذي قَبِل الله سبحانه وتعالى توبته، وقد أقسم الشّيطان بعزّة الله ليُغوينّ الكلّ، واستثنى عباد الله المخلصين، كما أخبرنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص]، ويصف الحقّ سبحانه وتعالى عداوة الشّيطان للإنسان بأنّها عداوةٌ مبينةٌ؛ أي محيطةٌ واضحةٌ، فقد توعّد إبليس -لعنه الله- بذلك كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف]، فعداوة الشّيطان هي عداوةٌ ظاهرةٌ، وستتغلّب وسوسته على إخوة يوسف عليه السلام.

(الآية ٦) - ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: أي أنّ الله ﷻ يصطفي ويجتبي ويعطي يوسف عليه السلام عطاءً من لدنه، والاجتباء هو اختيارٌ وعطاءٌ من الله ﷻ.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾: تأويل وفهم الأحاديث، وهذا ما يتبيّن معنا من سياق القصّة عندما كان يؤوّل الرّؤى في السّجن، وقد علم يعقوب بنبوّته أنّ الله ﷻ سيُعطي فَهْم وتأويل الأحاديث ليوسف عليه السلام، والتّعليم سيكون من الله ﷻ مباشرةً، فهو تعليمٌ لدنيّ.

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾: أي تمام النّعمة، وهذا يعني أنّ العطاء موصولٌ بين الدّنيا والآخرة، هكذا تتمّ النّعمة، أمّا إن كانت النّعمة في الدّنيا فقط وغير موصولةٍ بنعمة الآخرة فهي نعمةٌ منقوصةٌ.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾: رغم أنّ إخوة يوسف فعلوا ما فعلوا وكادوا ما كادوا كما سنرى، لكن في النّتيجة سيعمّ الخير على آل يعقوب، وهؤلاء من الأسباط وهم أولاد النّبيّ يعقوب عليه السلام، فنعمة الرّحمة الإلهيّة والعطاء الإلهيّ والرّسالة الإلهيّة ستتمّ عليك وعلى آل يعقوب.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾: إسحاق عليه السلام جدّه، وإبراهيم عليه السلام والد جدّه، وقد وصف النّبيُّ محمّدٌ ﷺ النّبيَّ يوسف عليه السلام قائلاً: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن**

إبراهيم»[1]، فيوسف هو ابن النّبيّ يعقوب، ويعقوب هو ابن النّبيّ إسحاق، وإسحاق هو ابن النّبيّ إبراهيم عليه السلام.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: فلا تستعجل الأمور يا يوسف، فهناك حكمةٌ من كلّ ما سيجري معك، هذا هو المعنى الّذي عبّر عنه يعقوب ليوسف الصّغير عندما قصّ عليه الرّؤيا، ثمّ يفتح القرآن الكريم السّتار عن مشهد إخوة يوسف وما يتعلّق بالقصّة بشكلها الكامل:

(الآية ٧) - ﴿۞لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾:

﴿۞لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾: قصّة يوسف مع إخوته آيةٌ لكلّ من يسأل ويريد أن يتّعظ ويعتبر؛ أي أنّ هناك عِبراً وعِظات لمن أراد أن يتمعّن ويسأل عن قصّة يوسف عليه السلام، فالمشهد الّذي نحن أمامه يتعلّق بيوسف وإخوته، الّذين هم أولاد النّبيّ يعقوب عليه السلام، ولم يرد لدينا أنّ أولاد يعقوب -غير يوسف عليه السلام- كانوا أنبياء.

﴿ءَايَٰتٌ﴾: الآية هي المعجزة، وهناك ثلاثة أنواعٍ من الآيات: أوّلاً: الآية في القرآن الكريم، كقوله جلّ جلاله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف: من الآية ١]، ثانيّاً: الآية بمعنى المُعجِزة، كقوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٠٨﴾ [الأعراف]، ثالثاً: الآية الكونيّة كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران].

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّفسير، باب سورة يوسف، الحديث رقم (٤٤١١).

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾: أي آياتٍ معجزاتٍ دالّات لكلّ من يسأل.

(الآية ٨) - ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾:

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾: يتحدّثون مع بعضهم ويقولون: إنّ يوسف وأخاه بنيامين أحبّ إلى أبينا منّا، وقد كان بنيامين ويوسف يتيمَي الأمّ، وكانا صغيرين، لذلك كان النّبيّ يعقوب عليه السلام يحرص عليهما، وهو يعدل بين أولاده، فالعدل يجب أن يكون في العطاء ولا يجوز التّفريق بين الأولاد، لكن عندما يكون الولد يتيم الأمّ أو صغيراً أو مريضاً.. فيجوز الاهتمام به أكثر، ويجب العدل بين الأبناء في العطايا، عن النّعمان ابن بشير قال: تصدّق عليّ أبي ببعض ماله، فقالت أُمّي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتّى تُشهد رسول الله ﷺ، فانطلق أبي إلى النّبيّ ﷺ ليشهده على صدقتي، فقال له رسول الله ﷺ: «**أفعلت بولدك هذا كلّهم؟**»، قال: لا، قال «**اتّقوا الله واعدلوا في أولادِكم**»، فرجع أبي فردّ تلك الصّدقة[1]، فالعدل في العطاء وليس في القلب والمحبّة، والنّبيّ لا يرتكب الأخطاء، فالنّبيّ يعقوب عليه السلام كان يعدل بين أولاده الاثني عشر، ولكنّه كان يخصّ يوسف بمحبّةٍ قلبيّةٍ خاصّةٍ؛ لأنّه يتيمٌ وصغيرٌ، والسّبب الثّاني هو الرّؤيا الّتي قصّها على أبيه فتبيّن له أنّه سيرث إبراهيم وإسحاق وسيكون نبيّاً.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، الحديث رقم (١٦٢٣).

﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾: أي قوّةٌ مجموعةٌ.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾: أي أنّه في خطأٍ كبيرٍ، وليس المقصود بالضّلال هنا معناه العامّ بأن يعلم الحقّ ويحيد عنه، بل بمعنى أنّه لا يهتدي الطّريق، كما قال ﷻ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضّحى]؛ أي أنّك لا تعرف الطّريق فهداك إلى الطّريق المستقيم، فهم قصدوا أنّ أباهم لا يعرف طريق الحقّ، إذاً تولّد الحسد في قلوب الإخوة مع أنّهم أبناء نبيٍّ، وهذا درسٌ لكلّ النّاس كي يتّعظوا ويعلموا خطر الحسد.

(الآية ٩) - ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾:

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾: ينقلنا القرآن الكلام فنسمع إخوة يوسف وهم يتحدّثون مع بعضهم، منهم مَن قال: اقتلوه، ومنهم مَن قال: لا، بل اطرحوه أرضاً؛ أي أبعدوه إلى أيّ أرضٍ، ومن المؤكّد أنّه سيموت إذا طرحوه أرضاً.

فنجد هنا أنّ الشّيطان تدخّل، فهو يمرّ على القلب وينكت فيه، وهذا هو الحسد، حتّى لو كانوا إخوةً، وحتّى ولو كانوا في رعاية نبيٍّ كريمٍ، فعندما يدخل الحسد يؤدّي إلى القتل، فهو ليس مرضاً بالنّفس فقط، بل قد يؤدّي إلى اختلال الموازين كلّها، فلا يعرف الإنسان الصّواب من الخطأ، ولا يعرف الحقّ من الباطل.

﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾: أي محبّة الأب.

﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾: نتخلّص منه، ثمّ بعدها نتوب عن هذه الجريمة. وهنا نتساءل: هل يجوز أن نُعدّ التّوبة مسبقاً قبل ارتكاب الإثم؟ الجواب: بالتّأكيد لا، فهذا خداعٌ، وحاشا لله ﷻ أن يخدعه العباد، فالتّوبة لا تُعدّ سلفاً، ولا يجوز أن نقول: إنّنا نريد أن نعصي الله ﷻ، ونتوب بعدها، فلا تُقبل التّوبة إذا كانت مُعدّةً وجاهزةً.

(الآية ١٠) - ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾:

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾: أي أنّ أحد الإخوة اقترح اقتراحاً آخر.

﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾: فقد كانوا خائفين على قلب أبيهم.

﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾: في غياهب البئر.

﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾: السّيّارة: الماشية في الطّريق؛ أي المسافرين.

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾: هذا الأخ قال: هل يُعقل أن نرتكب هذه الجريمة ونقتل أخانا؟ وهنا انتهى الحوار بين إخوة يوسف، وانتقل الحقّ ﷻ مباشرةً إلى الإخوة وهم يقفون أمام النّبيّ يعقوب عليه السلام، وهم يحاولون أن يخدعوه.

(الآية ١١) - ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾: من غير المعقول أن يتكلّموا جميعاً في وقتٍ واحدٍ، فمن المؤكّد أنّ أحدهم قد تكلّم، لكنّه تكلّم باسم الجميع.

﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: مكرٌ وخداعٌ وغشٌّ باستلطافٍ، وهو أبٌ

ونبيٌّ كريمٌ، وهم يتّهمون الأب بأنّه لا يأمنهم على يوسف، فهل يُعقل أن نكرهه أو أن نحقد عليه؟ لكنّ سيّدنا يعقوب عليه السلام كان لا يأمن على يوسف في الصّحراء؛ لأنّه صغيرٌ، فخاف أن يتركوه ويغفلوا عنه، وليس كما يظنّون؛ لأنّه لم يقع في خُلده للحظةٍ واحدةٍ بأنّ إخوته سيرتكبون هذه الجريمة الشّنعاء.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾: أي محبّون.

(الآية ١٢) - ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾: يرتع: من الرّعي، فهم يأخذون الغنم من أجل الرّعي، وهو طفلٌ صغيرٌ يحبّ أن يلعب.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾: نحن سنحافظ عليه.

(الآية ١٣) - ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أعطاهم سيّدنا يعقوب عليه السلام الحجّة مباشرةً، فالأرض ذئابٌ كلّها، فربّما غفلتم عنه فيأكله الذّئب.

(الآية ١٤) - ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

سيّدنا يعقوب عليه السلام خاف أن يتلهّوا عنه فقالوا: هل يُعقل ونحن عشرةٌ، وهو موجودٌ معنا أن يأكله الذّئب؟ فلا خير فينا، ونحن خاسرون في الدّنيا والآخرة، وأنزل الله سبحانه وتعالى هنا السّتار على هذا الحوار بين يعقوب عليه السلام

وبين أولاده، وأرسل معهم يوسف.

(الآية ١٥) - ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾: الجبّ: البئر، فلمّا أصبحوا في الصّحراء ووصلوا إلى البئر، أخذوا يوسف وشدّوا عنه قميصه؛ أي خلعوه، ثمّ رموه في غياهب البئر، فأخذ يوسف يصرخ، لكنّهم لم يجيبوه، ثمّ أخذوا القميص وذهبوا، وعين الله ﷻ لا تنام، فهي الّتي تكلأ وتحرس وتحمي.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: ألقى الله ﷻ في قلبه الهدوء؛ أي إنّك ناجٍ يا يوسف، وإنّك ستخرج وستلاقي هؤلاء الإخوة وستُنبِئُهم بأمرهم هذا وهم لا يعرفون أنّك يوسف، وقد تحقّق هذا الكلام بعد أربعين عاماً، فهذه أوّل محنةٍ من المحن الّتي وقعت ليوسف الطّفل الصّغير، وهي محنة الجبّ.

(الآية ١٦) - ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾:

جاؤوا في المساء يبكون؛ أي يصطنعون البكاء.

(الآية ١٧) - ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾:

في الأمس كان يعقوب عليه السلام يقول لهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾، فعندما جاؤوا قالوا: أكله الذّئب، الكذبة كانت واضحة.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾: أي لست بمصدّقنا.

﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾: كاد المريب أن يقول: خذوني، فهم يعلمون أنّه لن يُصدّق وسيحضرون دليلاً.

(الآية ١٨) - ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾: أعطوه قميص يوسف، وعندما نظر يعقوب إلى القميص الّذي لم يكن ممزّقاً التفت عليه السلام وقال: "ما أرأفك أيّها الذّئب بابني، لقد كنت رؤوفاً به أكثر من إخوته، كيف أكلتَ يوسف ولم تمزّق الثّوب؟"، فهم جاؤوا بالقميص ولم يكن ممزقاً، وقد وضعوا عليه دماً كذباً.

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾: بل زيّنت لكم أنفسكم أمراً في يوسف، ففعلتموه.

﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾: الصّبر الجميل هو صبرٌ دون شكوى.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾: أي أنّه لا بدّ مع الصّبر من الاستعانة بالله عز وجل.

(الآية ١٩) - ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾:

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾: مجموعة من المسافرين يُطلق عليهم سيّارة؛ أي من السّير الطّويل، وهي قافلةٌ من جهة مدين متّجهةٌ إلى مصر،

فتوقّفوا عند البئر وأرسلوا واردهم الّذي يأتي بالماء لهم كي يشربوا.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾: أخذ الدّلو كي يملؤه بالماء، وأسقطه في البئر فتعلّق يوسف الغلام الجميل الوضّاء بالحبل، وعندما أخرج الدّلو خرج معه غلامٌ عليه نورٌ كالبدر، فقال: يا بشرى هذا غلامٌ.

ولم يتحدّث القرآن الكريم كيف خرج وكيف تعلّق بالحبل.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾: أي جعلوه بضاعةً سرّيّةً؛ أي أخفوه في القافلة حتّى يبيعوه في مصر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: فالله ﷻ يعلم ما يجري.

(الآية ٢٠) - ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿وَشَرَوْهُ﴾: شروه؛ أي باعوه كالرّقيق، وهذه الكلمة من الأضداد في اللّغة العربيّة، اشتروه؛ أي شراء، أمّا شروه؛ أي باعوه.

﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾: بثمنٍ قليلٍ.

(الآية ٢١) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾:

انتقل الآن المقطع إلى عزيز مصر الّذي كان قائد الجند ورئيس وزراء مصر في ذلك الوقت.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾: أي أكرمي مكان إقامته، وعندما نقول: أكرَمَ فلاناً، أو أكرِم إقامة فلانٍ؛ أي أفضل إكرامٍ.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: لم يكن لعزيز مصر أولاد، وهنا نرى فراسة عزيز مصر، لذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "أفرس النّاس ثلاثة، صاحبة موسى الّتي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: من الآية ٢٦]، قال: وما رأيتِ من أمانته؟ قالت: كنتُ أمشي أمامه فجعلني خلفه، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: من الآية ٢١]، وأبو بكرٍ حين استخلف عمر"(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: كيف مكّن الله ﷻ ليوسف في الأرض ولم يحدث التّمكين بعد؟ الجواب: أنّه مكّنه في قلب العزيز -أكبر الأشخاص في مصر- وهذا أوّل تمكينٍ ليوسف عليه السلام.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: أي عندما يُبدَأ بالحديث يعلم سيّدنا يوسف عليه السلام تتمّته.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾: الله ﷻ هو صاحب الأمر، فقد أراد إخوة يوسف عليه السلام أن يتخلّصوا منه، وأراد الله ﷻ أمراً آخر فأخرجه من الجبّ وجعله مُمَكَّناً في قلب عزيز مصر.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: إنّنا نعلم الظّاهر من الحياة الدّنيا،

---

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: كتاب التّوبة، ما جاء في الفراسة، ج٤، ص ٤٨٦.

ولا نعلم الحقائق، ويعتقد النّاس أنّ الأخذ بالأسباب هو الّذي يؤدّي إلى النّتائج، نعم لا بدّ من الأخذ بالأسباب، ولكنّ النّتائج معلّقةٌ بإرادة الله تعالى، فأمره بين الكاف والنّون.

(الآية ٢٢) - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾: أي عندما بلغ يوسف بين الثّلاثين والأربعين.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾: أعطاه الله ﷻ الحُكم؛ أي وضع الأمور في نصابها، وأعطاه العلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: أي أنّ الله ﷻ يعطي العلم والحكمة والفضل الكبير للمحسنين، فالإنسان الّذي يحسن في الأرض يجب أن يكون جزاؤه من جنس جزاء يوسف، فالإحسان ليس فقط بالإنفاق، وإنّما الإحسان هو أعلى مراتب الإيمان والإسلام، قال النّبيّ ﷺ عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[1]، معنى هذا أنّ الإنسان يكون في حياته كلّها في عبادةٍ مستمرّةٍ، إن كان في المصنع فهو في عبادةٍ، وإن كان في الحقل يفلح فهو في عبادةٍ، وإن كان على المنبر فهو في عبادةٍ، وإن كان يصلّي فهو في عبادةٍ، وإن كان يُزكّي فهو في عبادةٍ، الموظّف في وظيفته إذا أحسن في عبادةٍ، والشّرطيّ في عمله في عبادةٍ.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النّبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم السّاعة، الحديث رقم (٥٠).

(الآية ٢٣) - ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾:

كان سيّدنا يوسف عليه السلام في مجتمع الطّبقة الرّاقية، في بيت عزيز مصر الّذي أكرمه وأحبّه حبّاً شديداً لأمانته وأخلاقه ونزاهته وعفّته، ومرّت السّنوات وأصبح يوسف عليه السلام في ريعان الشّباب.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾: هذه المرأة هي زُليخة كما جاء في الرّوايات، وقد تربّى يوسف أمام عينيها، وقد رأت منه عليه السلام ما لم تره من أيّ إنسانٍ من الحُسْن، قال النّبيّ ﷺ عند حديثه عن رحلة الإسراء والمعراج: «**ثمّ عُرِج بي إلى السّماء الثّالثة، فاستفتح جبريل فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمّد ﷺ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، فَفُتِح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أُعطي شَطْر الحُسْن**»[1]؛ أي أنّه كان كامل الحُسْن والجمال، فرأت هذه المرأة يوسف بهذا الجمال والقوّة والعزّة والأخلاق العالية فأُغرمت به حبّاً، وبدأت المحنة الثّانية وهي محنة الإغراء، وهي من أشدّ المحن الّتي ابتلاه الله ﷻ بها، يقول النّبيّ ﷺ: «**إنّ أشدّ النّاس بلاءً الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل**»[2].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السّماوات وفرض الصّلوات، الحديث رقم (١٦٢).

(٢) سنن النّسائيّ الكبرى: كتاب الطّبّ، باب أيّ النّاس أشدّ بلاءً، الحديث رقم (٧٤٨٢).

هنا لم يقل: راودته امرأة العزيز عن نفسه، فهي ليس لها أيّ قيمةٍ، لكنّها ذُكرت؛ لأنّ يوسف عليه السلام في بيتها، فالتّكريم له عليه السلام.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾: ولم يقل: أغلقت الباب، بل غلّقت؛ أي أوصدت الأبواب بشدّةٍ كي لا يرى أحدٌ ما سيجري، فغلّقت عدّة أبواب.

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾: أي تهيّأت لك، وقد كانت بادية المفاتن، فانتقلت هنا من مرحلة المراودة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾: قال يوسف عليه السلام بأخلاقه الرّفيعة العالية عندما تعرّض للفتنة والإغراء: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾، امرأةٌ بهذا الحُسن والجمال والغِنى... وهي زوجة العزيز تطلب منه المعصية، لكنّه استعاذ بالله عزّ وجلّ، فاستمسك واستعصم به، ومن لم يستعصم بالله سبحانه وتعالى يقع في حبال المعصية أيّاً كانت هذه المعصية.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾: أي العزيز الّذي ربّاه، ربّ البيت أحسن مثواي، فلا يكون ردّ الجميل هكذا، فهل أقابل الإحسان بالإساءة؟

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أكبر ظلمٍ أن يظلم الإنسان نفسه بارتكاب المعاصي، فهذا درسٌ عظيمٌ في هذه الآيات.

(الآية ٢٤) - ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾:

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾: الهمّ هو حديث النّفس بالشّيء، إمّا أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه، فامرأة العزيز همّت به، وقالت: هيت لك.

﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾: لولا: باللّغة حرف امتناعٍ لوجود، كقولك: لولا زيدٌ عندك لأتيتك، والقرآن الكريم يتحدّث عن النّفس البشريّة، فمن طبيعة البشر بمثل هذه الظّروف أن يهمّ بها، لكنّ الله ﷻ ينفي هنا الحدث، فبرهان ربّه ﷻ سابقٌ على الهمّ، فلولا أن رأى برهان ربّه لكان قد همّ بها، فقوله ﷻ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أبلغ وأعظم، لتبيّن بأنّه من الطّبيعيّ أن يهمّ بها لجمالها ومكانتها، لكنّ برهان الله ﷻ عند يوسف عليه السلام كان سابقاً على الهمّ.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: الفحشاء؛ أي الزّنى، والسّوء هو مجرّد فكرة الهمّ.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: يقرّر القرآن الكريم أنّ يوسف عليه السلام من عباد الله ﷻ المُخلَصين، وفي هذا ردٌّ على الشّيطان -لعنه الله- الّذي قال عندما طُرد من رحمة الله ﷻ بعصيانه واستكباره: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص].

(الآية ٢٥) - ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾: أي حاول كلاهما الوصول إلى الباب قبل الآخر، وتسابقا، وهنا ذكر المولى ﷻ باباً واحداً، مع أنّه في الآية السّابقة قال: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾؛ أي أنّ هناك أكثر من بابٍ، وهنا المراد أنّه وصل إلى

الباب الأخير.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾: مزّقت قميصه.

﴿مِن دُبُرٍ﴾: أي سبقها؛ لأنّها شدّت قميصه من الخلف، فتمزّق القميص في يدها.

﴿وَأَلْفَيَا﴾: وجدا.

﴿سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾: أي العزيز، والمفاجأة كانت بظهور العزيز أمام الباب الأخير.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: هنا وبشكلٍ سريعٍ ألقت هذه المرأة الاتّهام على يوسف عليه السلام على شكل سؤالٍ لتبرّر موقفها، وحدّدت العقاب مباشرةً.

(الآية ٢٦-٢٧) - ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾: هنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولين مختلفين.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾: كان من أقربائها، لكنّنا لا نعرف مَن هو.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: الشّاهد لم يكن قد رأى القميص، لكنّه حكم مباشرةً إذا كان القميص قُدّ من الخلف فهو صادقٌ وهي كاذبةٌ، وإن كان قُدّ من الأمام فهو الكاذب وهي الصّادقة.

(الآية ٢٨) - ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾: رأى العزيز أو الشّاهد.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ﴾: الكيد: هو احتيالٌ على اتّباع السّوء بخفاءٍ، وهذا الكلام هو للعزيز بدليل أنّه تابع كلامه قائلاً ليوسف عليه السلام:

(الآية ٢٩) - ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ﴾: لا تتكلّم بهذا الموضوع؛ لأنّ سمعته ومكانته تهمّه، ولا يريد أن ينتشر الخبر، فأقرّ بخطأ زوجته وحاول كتمان الأمر.

﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ﴾: فهو يعرف بأنّ هناك إلهاً ومدبّراً لهذا الكون، فطلب منها أن تستغفر لهذا الذّنب.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾: أقرّ بالخطأ الّذي ارتكبته زُليخة.

وهذه الآية تبيّن أنّه أهمّه أن ينتشر الخبر، ووضع الملامة على زوجته، ومع ذلك تسلّل الخبر، فالقصر مليءٌ بالخدم والحشم.

(الآية ٣٠) - ﴿*وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿*وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾: لم يكن قول النّسوة غضبةً للحقّ ولا تعصّباً للفضيلة، ولكن نكايةً بامرأة العزيز.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ﴾: أي أنّ المشاعر انتقلت من إدراكها إلى شغاف

قلبها، والشِغاف: هو الغشاء الرّقيق الّذي يستر القلب؛ أي أنّ الحبّ تمكّن من قلبها.

(الآية ٣١) - ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾: عندما تداول النّسوة في المدينة الخبر وصل الأمر إلى امرأة العزيز، فأرادت أن تقطع عليهنّ الطّريق.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: دعت النّساء إلى داخل قصر العزيز، وجلست معهنّ.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾: أي مكاناً يَتّكئ عليه الإنسان، ويجلس فيه مرتاحاً.

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾: وقدّمت لهنّ كما نفهم من السّياق القرآنيّ فاكهةً وسكيناً لتقطيعها.

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾: طلبت من يوسف عليه السلام أن يدخل، وهو عبدٌ عندها، فدخل سيّدنا يوسف.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: عندما دخل عليه السلام ورأينه بهذا الحُسْن وهذه الطّلعة البهيّة انبهرن انبهاراً كبيراً.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: من شدّة انبهارهنّ بجمال سيّدنا يوسف عليه السلام قطّعن أيديهنّ؛ أي جرحن أيديهنّ.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: قلن: ليس من المعقول أن يكون بشراً، بل هذا مَلَكٌ كريمٌ.

(الآية ٣٢) - ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ﴾: هي إشارةٌ ليوسف؛ أي أنّه بعيد المَنال.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾: اعترفت أمام كل النّسوة بالفاحشة، وبرّأته بنفس الوقت.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: الصّاغرين: أي الأذلّاء المهانين، فهدّدته بالحبس والإذلال، عندها قال يوسف عليه السلام:

(الآية ٣٣) - ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ﴾: هذا الخبر من الله سبحانه وتعالى يدلُّ على أنّ امرأة العزيز قد عاودت يوسف عليه السلام في المراودة عن نفسه، وتوعَّدته بالسّجن إن لم يفعل ما دعته إليه، فاختار السّجن على ما دعته إليه.

(الآية ٣٤) - ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾:

فاستجاب له ربّه جلّ جلاله دعاءه بأن ثبّته على العصمة والعفّة وحال بينه وبين المعصية.

(الآية ٣٥) - ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾:

بعد ما اتّضحت الآيات الدّالّة الواضحة على أنّ قميص يوسف قُدّ من دبرٍ، وأنّها هي الّتي راودته عن نفسه، وهو استعصم، وانتشر النّبأ، وأخبرت امرأة العزيز النّسوة عندما جمعتهنّ في بيتها، أراد العزيز أن يغطّي على هذا الأمر حفاظاً على سمعته، فلفّقوا له تهمةً ووضعوه في السّجن، وهنا تبدأ المِحنة الثّالثة.

وفي نفس الوقت اتّهم السّاقي والخبّاز الّذَين في القصر بأنّهما وضعا سمّاً للملك، وأدخلوا الثّلاثة، يوسف والخبّاز والسّاقي إلى السّجن.

(الآية ٣٦) - ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾: دخل السّجن مع يوسف فتيان، ومرّت فترةٌ، وشاهدوا من يوسف الصّلاح والمسلَك القويم.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾: وبعد فترةٍ شاهد كلٌّ منهما رؤيا، فأخبراه بها.

﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾: أي أعصر عنباً.

﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: علموا أنّه من المحسنين من سلوكه وأخلاقه داخل السّجن، فطلبوا منه عندما رأوه بهذا الصّلاح وهذا

الإحسان أن يفسّر لهما ما أخبراه به من الرّؤى.

(الآية ٣٧) - ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ﴾: أبدى لهم بعض المعجزات الّتي تحدث معه، فهو لم يجبهم على الرّؤيا، إنّما قال: قبل أن يأتيكم الطّعام أعرف ما هو الطّعام الّذي سيأتي.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ﴾: وجد سيّدنا يوسف عليه السلام نفسه في السّجن مع مجموعةٍ كبيرةٍ، فبدأ يدعو إلى الله سبحانه وتعالى، فلفتهم إلى ربّه جل جلاله.

﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾: وهؤلاء السّجناء من هؤلاء القوم، لكنّه أدباً لمّح بهم ولم يُصرّح.

﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾: دين قومٍ.

﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾: لا يؤمنون؛ أي أنتم لا تؤمنون بالله سبحانه وتعالى ولا باليوم الآخر.

(الآية ٣٨) - ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: بدأ يبيّن لهم من هو، فأبوه يعقوب وجدّه إسحاق وجدّ أبيه إبراهيم عليهم السلام.

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾: بدأ بالدّعوة إلى الإسلام بهذه الطّريقة؛ لأنّ الإسلام هو دعوة كلّ الأنبياء عليهم السلام، فالإنسان الّذي يشرك بالله ﷻ فهو على غير درايةٍ وعلمٍ.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾: ومن يعلم بأنّه لا إله إلّا الله فهذا فضلٌ من الله ﷻ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾: نِعَم الله ﷻ لا تُعدّ ولا تحصى، ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون النّعم، ومن أهمّ هذه النّعم أن نعلم أنّه لا إله إلّا الله وأن نعبده وحده ﷻ.

(الآية ٣٩) - ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾:

بدأ سيّدنا يوسف عليه السلام يخاطب العقل، فتعدّد الآلهة، وتعدّد الذّوات، وتعدّد الإرادات، وتعدّد القدرات، ستؤدّي إلى تصادمٍ، فهل أربابٌ متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار الّذي قهر كلّ شيءٍ.

(الآية ٤٠) - ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾:

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾: من دون الله ﷻ.

﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾: أنتم تعبدون أسماء فقط لا

مسمّيات، لا حول لهم ولا قوّة، أطلقتم عليها هذه الأسماء وقلّدتم الآباء.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾: السّلطان: الدّليل؛ أي دليل العقل والحُجّة والبرهان.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾: الأمر والقدرة والقوّة لله جَلَّ جَلَالُهُ، وإن أعطيتكم الآن تفسيراً للرّؤيا فهذا من الله وَعَجَّلَ، ففي كلّ أمرٍ من أمور الدّنيا والآخرة، في معاشنا وفي حياتنا وفي عملنا وفي كلّ أمرٍ من أمورنا الحُكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾: العبادة ليست كما يعتقد بعضهم بأنّها فقط صلاةٌ وصيامٌ وحجٌّ وزكاةٌ، وإنّما العبادة هي طاعةٌ فيما أمر وانتهاءٌ عمّا نهى وزجر.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾: هذا هو الدّين الّذي يحمل القِيم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: لا يعلمون الحقيقة.

(الآية ٤١) - ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾: قال: ﴿أَحَدُكُمَا﴾، نلاحظ هنا ذكاء سيّدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لم يذكر مَن يسقي الملك خمراً ومَن الّذي يُصلَب حتّى لا ينهار الثّاني.

﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾: أي أنّه سيقدّم له كأس خمر.

ربّه؛ أي معلّمه الّذي هو ربّ القصر، وهو الملك، فتأويل الرّؤيا الأولى

بأنّ السّاقي سيخرج بريئاً، وأنّه بريءٌ ممّا اتُّهم فيه وسيخرج ويعود إلى عمله.

﴿وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾: أمّا الثّاني فسيُصلَب؛ أي سيُقتل؛ لأنّها ستقع التّهمة عليه، وستأتي الطّيور كالصّقور والنّسور وتأكل من رأسه.

﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾: هذا أمرٌ منتهٍ سيحدث كما قلتُ لكم.

(الآية ٤٢) - ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾: ظنّ هنا بمعنى تأكّد بأنه ناجٍ.

﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾: أي عندما تخرج من السّجن وتكلّم الملك تحدّث له عنّي، وأخبره أنّي سجينٌ مظلومٌ، وأنّي بريءٌ.

﴿رَبِّكَ﴾؛ أي الملك، ربّ: تُطلق على ربّ المنزل وتُطلق على الملك.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: قال العلماء: المراد هنا قولان: الأوّل: أنّ الشّيطان أنسى هذا الرّجل ذِكر يوسف عليه السلام عند ربّه، فبقي في السّجن بِضع سنين، والقول الآخر: هو أنّ الشّيطان أنسى يوسف عليه السلام أنّه يجب ألّا يطلب من البشر أبداً، فهو مع ملك الملوك، كأنّ المولى سبحانه وتعالى أراد أن يبيّن أنّ الشّيطان أنساه ذكر الله سبحانه وتعالى، فلذلك بقي في السّجن بضع سنين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**رَحِمَ الله يوسف، لولا الكلمة الّتي قالها: اذكرني عند ربّك، ما لبث في السّجن ما لبث**»[1].

---

(١) صحيح ابن حبّان: كتاب التّاريخ، باب بدء الخلق، الحديث رقم (٦٢٠٦).

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾: ذلك الجزاء تكريمٌ ليوسف عليه السلام، فنجاته عليه السلام لا يمكن أن تكون عن طريق عبدٍ من العبيد، حتّى لو كان الملك، إنّما النّجاة لا تكون إلّا بيد ملك الملوك سبحانه وتعالى.

(الآية ٤٣) - ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَايَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾:

انتقل المشهد القرآنيّ إلى قصر الملك.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾: نتوقّف هنا عند كلمة (الملك)، ونحن نعلم بأنّ الأرض الّتي جرت فوقها تلك القصّة هي مصر، عرفنا ذلك من قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ﴾ [يوسف: من الآية ٢١]، فهناك ملكٌ وهناك عزيز الّذي هو الوزير الأوّل، ونعلم أنّ حكّام مصر كان يُقال عنهم: فراعنة، لكنّ القرآن الكريم يقول هنا: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾، ففي الفترة الزّمنيّة الّتي حكم فيها الهكسوس -وهم الرّعاة- مصرَ، لم يكن هناك فرعون وإنّما كان هناك ملكٌ، وهذه الفترة كما أكّدت الكتابة الهيروغليفيّة على الحجر الرّشيد بأنّها في أيّام يوسف عليه السلام، وهذا من الإعجاز العظيم لكتاب الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾: فهو رأى سبع بقراتٍ سمانٍ؛ أي ممتلئة باللّحم، ورأى سبع بقراتٍ عِجاف؛ أي هزيلة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَايَ﴾: بدأت الأحداث بهذه الرّؤيا، والحقيقة بأنّ رؤيا الملك كانت في زمنٍ تكثُر فيها الرّؤى والتّعبير عنها، فجمع الملك

كبار القادة والكهنة وحاول أن يعرف.

﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾: تعبرون جاءت من عبور النّهر من ضفّةٍ إلى ضفّةٍ أخرى، تعبرون؛ أي تعبر الرّموز من الخيال إلى الحقيقة.

(الآية ٤٤) - ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ﴾: الضّغث باللّغة: هو حزمة من الحشائش المختلفة الأجناس، أضغاث أحلامٍ؛ أي أخلاط أحلام، وأمورٌ مختلطةٌ ببعضها.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾: لا نعلم تأويل الأحلام.

(الآية ٤٥) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: أي تذكّر بعد فترةٍ.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾: عندما قالوا للملك: أضغاث أحلام، ولم يشاؤوا تفسير هذا الحلم للملك خوفاً، كان السّاقي موجوداً بينهم، يسكب لهم الخمر، فقال لهم: أنا أعرف من يفسّر الحلم، فأرسلوني إلى يوسف الموجود في السّجن، فهو يعلم تأويل الأحلام.

(الآية ٤٦) - ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

انتقلنا الآن من قصر الملك إلى السّجن، وقد نقل السّاقي الكلام إلى

يوسف داخل السّجن.

(الآية ٤٧) - ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾:

﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾: تزرعون سبع سنين متوالياتٍ خصيباتٍ، يكون فيهنّ مطرٌ وزرعٌ وخيرٌ وخصبٌ.

﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾: يعطيهم سيّدنا يوسف النّصائح، ولننظر الآن في القرن الحالي الإصلاح الزّراعيّ وعمليّات الإرشاد الزّراعيّ، عندما تريد أن تخزّن محصول القمح عليك أن تترك المحصول في سنابله كي لا يُصاب بالتّسوّس، فانظر كيف قال يوسف عليه السلام منذ ذلك العهد: اتركوه في سنبله.

(الآية ٤٨) - ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨﴾:

﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾: سبع سنواتٍ شِدادٌ، ستأتي على الأرض والمخازن بما فيها، وذلك من شدّة الجوع والحرّ والقحط، ولعدم نزول المطر.

(الآية ٤٩) - ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾:

﴿عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾: فهو عام خيرٍ.

﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾: أي يعصرون العنب.

وهذا الكلام غير موجود في رؤيا الملك، لكنّ يوسف عليه السلام أضافه إلى الحلم، كي يبرهن للنّاس أنّه نبيٌّ، وهذا وحيٌ من الله سبحانه وتعالى، ثمّ خرج السّاقي مباشرةً وأخبر الملك.

(الآية ٥٠) - ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾: عندما سمع الملك تفسير الرّؤيا طلب أن يخرجوا يوسف ويحضروه إليه.

وقد كان يوسف عليه السلام قد تعرّض لثلاث مِحنٍ، وهو الآن في المرحلة الأخيرة من مِحنة السّجن، وبدأت المِحن تنتهي بنهاية هذه المحنة الثّالثة، وكانت المحنة الأولى عندما ألقاه إخوته في الجبّ، والمِحنة الثّانية هي ما قامت به امرأة العزيز من مراودته عليه السلام، وهذه المِحنة الأخيرة وهي السّجن.

﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾: قال الملك: ائتوني به.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾: جاء رسولٌ من عند الملك لإخراجه من السّجن.

﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: قال رسول الله ﷺ: «**ولو لبثت في السّجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»[1]، لكنّ يوسف عليه السلام رفض أن يخرج.

﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: دعه يجمع النّسوة اللّواتي حاولن المراودة مع امرأة العزيز.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّفسير، باب سورة يوسف، الحديث رقم (٤٤١٧).

(الآية ٥١) - ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾: المراودة؛ أي أخذٌ وردٌّ، وقد سمع الملك القصّة بشكلٍ كاملٍ من السّاقي الّذي كان مع يوسف عليه السلام في السّجن.

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾: أنكرن بشكلٍ كاملٍ أن يكون يوسف عليه السلام قد ارتكب أيّ سوءٍ.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾: أي أنّ الحقّ أخذ حصّته الحقيقيّة، فكانت حصّة الحقّ هي الغالبة على حصّة الباطل.

﴿أَنَا۠ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾: اعترفت امرأة العزيز بالحقيقة بعد مرور هذه السّنوات، وانكشفت الأمور بشكلٍ كاملٍ.

(الآية ٥٢) - ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: أنا لم أخن العشرة وسأقول الحقيقة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾: ففي تلك الأيّام، كان هناك أُناسٌ كثيرون على دين التّوحيد، على دين إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، فكان هناك مؤمنون، لكن لا يعرفون كلّ التّفاصيل.

تَمَّ بِفَضْلِ اللهِ تعالى تَفْسِيرُ الجزْءِ الثّاني عشر

اللَّهمَّ لَكَ الحمدُ على كلِّ نِعمةٍ أنعمتَ بها علينا في قَديمٍ أو حَديثٍ، أو خاصٍّ أو عامٍّ، أو سرٍّ أو عَلانية، لكَ الحَمْدُ بالإسلامِ، ولَكَ الحَمْدُ بالإيمانِ، ولكَ الحَمْدُ بالقُرآنِ، ولكَ الحَمْدُ بالمالِ والأهلِ والمعافاةِ.

اللَّهمَّ ارْفَعْنا بالقُرآنِ الكريمِ في دَرَجِ الجِنَانِ، وارْفَعْ عَنَّا بِفَضْلِهِ الأحْزانَ، وزوِّدْنا بِفَضْلِهِ مِنَ الخَيراتِ الحِسانِ، وَضَاعِفْ لَنا الأُجُورَ بِرَحْمَتِكَ وإحْسَانِكَ يا وَاهِبَ المِنَنِ الحِسَانِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا لِقُرْآنِكَ خَاشِعِينَ، وَبِلَيلِكَ قَائِمِينَ رَاكِعِينَ سَاجِدِينَ، وَبِعِبَادَتِكَ مُخْلِصِينَ، وَلِحَبِيبِكَ مُحَمَّدٍ ﷺ تَابِعِينَ، وَبِحُبِّكَ وَاصِلِينَ، وَلِجَنَّتِكَ مُسْتَحِقِّينَ، وَلِوَجْهِكَ الكَرِيمِ نَاظِرِينَ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا بِتَرْكِ المعَاصِي دَائِماً مَا أَحْيَيْتَنَا، وَارْحَمْنَا بِتَرْكِ مَا لا يعنِينَا، وارْزُقْنَا حُسْنَ النَّظَرِ فِيمَا يُرْضِيكَ عَنَّا، وَأَلْزِمْ قُلُوبَنَا حِفْظَ كِتَابِكَ كَمَا عَلَّمْتَنَا، وَنَوِّرْ بِهِ أَبْصَارَنَا، واشْرَحْ بِهِ صُدُورَنَا، واجْعَلْنَا نَتْلُوهُ كَمَا يُرْضِيكَ عَنَّا، وافْتَحْ بِهِ قُلُوبَنَا، وَأَطْلِقْ بِهِ أَلْسِنَتَنَا.

سُبْحَانَ ربِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وسَلامٌ عَلى المُرْسَلِينَ، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين.

فهرس

رقم الآية – نصّ الآية **رقم الصّفحة**

تفسير سورة (هود) من الآية: (٦–١٢٣):

٦- ﴿*وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ ٩

٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ ١٠

٨- ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨﴾ ١١

٩- ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾ ١٣

١٠- ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠﴾ ١٤

١١- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ ١٥

١٢- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ ١٧

١٣- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ ١٩

١٤- ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ ٢٠

١٥- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ ٢١

١٦- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ ٢٣

١٧- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ ٢٣

١٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ ٢٥

١٩- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ ٢٦

٢٠- ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٢٧

٢١- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ ... ٢٨

٢٢- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ٢٨

٢٣- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ٢٩

٢٤- ﴿*مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ٣٠
٢٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ ٣١
٢٦- ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ ٣٢
٢٧- ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ٣٢
٢٨- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ٣٤
٢٩- ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ٣٥
٣٠- ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ٣٦
٣١- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ ٣٧
٣٢- ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ٣٧
٣٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ ٣٨
٣٤- ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ٣٩

٣٥- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾
..... ٣٩
٣٦- ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ٤٠
٣٧- ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾
..... ٤١
٣٨- ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ٤٢
٣٩- ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ ٤٣
٤٠- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ ٤٤
٤١- ﴿* وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾
..... ٤٥
٤٢- ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب
مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ٤٦
٤٣- ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن
رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ٤٧
٤٤- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ
عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ٤٧
٤٥- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ٤٨

٤٦- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ٤٩

٤٧- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ٥٠

٤٨- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ ٥٠

٤٩- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ٥٤

٥٠- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ٥٥

٥١- ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ ٥٦

٥٢- ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ ٥٦

٥٣- ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ٥٩

٥٤- ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ٥٩

٥٥- ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ ٦٠

٥٦- ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ ٦٠
٥٧- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ ٦١
٥٨- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ ٦٢
٥٩- ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ ٦٣
٦٠- ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ ٦٤
٦١- ﴿*وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ ٦٥
٦٢- ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ ٦٧
٦٣- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ ٦٨
٦٤- ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ ٦٩
٦٥- ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ ٦٩

٦٦- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ ٧٠
٦٧- ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ ٧٠
٦٨- ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾ ٧١
٦٩- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٖ حَنِيذٖ ٦٩﴾ ٧٢
٧٠- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾ ٧٣
٧١- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ .. ٧٤
٧٢- ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ ٧٤
٧٣- ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ ٧٥
٧٤- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ ... ٧٦
٧٥- ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾ ٧٦
٧٦- ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ ٧٦
٧٧- ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ ٧٧

٧٨- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ ٧٨

٧٩- ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ ٧٩

٨٠- ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ ٧٩

٨١- ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ ٨٠

٨٢- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ ٨١

٨٣- ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ ٨٢

٨٤- ﴿*وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ ٨٣

٨٥- ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ ٨٥

٨٦- ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ ٨٦

٨٧- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ ٨٧

٨٨- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ ٨٨
٨٩- ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ ٩٠
٩٠- ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ ٩٠
٩١- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ ٩١
٩٢- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ ٩١
٩٣- ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ ٩٢
٩٤- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ ٩٣
٩٥- ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ ٩٤
٩٦- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦﴾ ٩٥
٩٧- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ ... ٩٥
٩٨- ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ ... ٩٦
٩٩- ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾ ٩٦

١٠٠- ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾ ٩٧
١٠١- ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ ٩٧
١٠٢- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ ٩٨
١٠٣- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾ ٩٨
١٠٤- ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾ ٩٩
١٠٥- ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾ ٩٩
١٠٦- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾ ١٠٠
١٠٧- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ ١٠٠
١٠٨- ﴿*وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ ١٠١
١٠٩- ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾ ١٠١
١١٠- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠﴾ ١٠٢
١١١- ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١﴾ ... ١٠٣
١١٢- ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ ١٠٤

١١٣- ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ١٠٦
١١٤- ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ ١٠٧
١١٥- ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ ١١١
١١٦- ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ ١١١
١١٧- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ ١١٥
١١٨- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ ١١٦
١١٩- ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ١١٧
١٢٠- ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ١١٩
١٢١- ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ ١٢٠
١٢٢- ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ١٢٠
١٢٣- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ ١٢١

تفسير سورة (يوسف) من الآية: (١-٥٢):

١- ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ ١٢٦

٢- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ ١٢٦
٣- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ ١٢٨
٤- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ ١٣٠
٥- ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ ١٣١
٦- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ ١٣٣
٧- ﴿*لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ ١٣٤
٨- ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ۚ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ ١٣٥
٩- ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ ١٣٦
١٠- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ ١٣٧
١١- ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ ١٣٧
١٢- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ ١٣٨
١٣- ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣﴾ ١٣٨

١٤- ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾ .. ١٣٨
١٥- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ ١٣٩
١٦- ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ ١٣٩
١٧- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ ١٣٩
١٨- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ ١٤٠
١٩- ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ ١٤٠
٢٠- ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ ١٤١
٢١- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ ١٤١
٢٢- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ .. ١٤٣
٢٣- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ ١٤٤
٢٤- ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ ١٤٥

٢٥- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ ١٤٦

٢٦- ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ١٤٧

٢٧- ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ١٤٧

٢٨- ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ ١٤٨

٢٩- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ ١٤٨

٣٠- ﴿*وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ ١٤٨

٣١- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ ١٤٩

٣٢- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ١٥٠

٣٣- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ ١٥٠

٣٤- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ ١٥٠

٣٥- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ ١٥١

٣٦- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ ١٥١

٣٧- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ ١٥٢

٣٨- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ ١٥٢

٣٩- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٣٩﴾ .. ١٥٣

٤٠- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٤٠﴾ ١٥٣

٤١- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ٤١﴾ ١٥٤

٤٢- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ٤٢﴾ ١٥٥

٤٣- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ٤٣﴾ ١٥٦

٤٤- ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ ١٥٧
٤٥- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾
..... ١٥٧
٤٦- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾
..... ١٥٧
٤٧- ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ ١٥٨
٤٨- ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨﴾
..... ١٥٨
٤٩- ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ ١٥٨
٥٠- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ ١٥٩
٥١- ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ ١٦٠
٥٢- ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ ١٦٠
تضرّع ودعاء ١٦١
فهرس ١٦٣